إيبولا

إيبولا

تأليف: محمد دالاتي

الناشر:

الطبعة الأولى /

حقوق النشر محفوظة

الإخراج الفني: أحمد خيري

تصميم الغلاف:

محمّـد

د ا لاتـــي

إيبولا

(ظل الرواية)   (

رواية

« هذا هو صاحب الرواية !... »

صرخت امرأة من طرف الشارع ، وهو يحاول أن يتوارى خلف جدران شفافة لا تخفي سوى الهواء . وحين ينحني ظهره ، بالمعطف الأسود ، يتراءى له بحزن، الحريق الكبير، الحريق الذي ارتفع فوق القلعة، والجدران والطرقات التي خبأت فيما مضى، روايات كثيرة ، لم تشر إليها امرأة غامضة، ولا حاكم لا يظهر إلا في لحظات لا يقدر حتى العرافون، طويلو الباع في فن العرافة منذ دهور ، أن يتكهنوا متى يطل ، بعد أن تنتهي لحظات المتعة المختبئة بين الجدران المظلمة ، الرطبة ، التي اتكأت عليها أجساد الصغيرات وهن يتوسلن الحجر كي تخف الآلام التي تجتاح أجسادهن من كل مكان تصطاده شهوة صاحب المكان ، ومقرر الزمان الذي يطعن كالخنجر في كل مكان من زوايا الأجساد حتى تنز الجدران بالسائل المخيف .

- من هو صاحب الرواية ؟ . يصرخ رجل منحني القامة .

- ما هي الرواية ، حتى يتوارى هذا الرجل هاربا كفأر من أصابع امرأة لا يذكرها الزمن ؟

- يصرخ رجل آخر من طرف بعيد على ناصية رصيف مظلم.

- لا بد أنها الرواية التي تعرفونها جميعكم ، أي رواية لا تعرفونها ؟ غامضة كسحر أو أسطورة ، وهي ليست سطورا تزيد عما تعرفون وتكتمون .

- هي قصة تجعل مدينتنا مدينة حلم وشهوة في الذهاب المجنون خلف البحار ، تنبش ما صمتم عنه بلغة الخفاء التي تمارسون ، تعيشون في المدينة على هامشها ، تؤرخون ما حولها ، وتخافون أن تقتربوا من سطورها ، حتى إذا كان سطرا واحدا ، متواطئون على أنفسكم ، وعلى لحظات مساءاتكم وهواء المدينة الذي كاد يختنق بما تكتمون أو تروون ، أخفيتم حقيقة كل شيء ، بسبب الخوف من ملك الهواء والزمان والحجر ، الذي لا يخرج ، لا لأنه كبير وأعلى شأنا من مقدساتكم، بل ببساطة شديدة ، لأنه يخافكم أيها البلهاء ، زيفتم الحجر والقلاع ، وحكايا الطرقات وخنتم الدم والعشق الإلهي الذي دفن في شوارعكم ليلا وأنتم الشهود الصامتون أبدا.

المدينة الأنثى التي انتهكها سادة الزمن المزيفون ، وصدروا إليكم خوفا لا ينتهي ، كانوا كاذبين ، وكنتم كاذبين، كانوا تجار خبزكم الخبيثين وكنتم

تتاجرون بدخان الحقائق وتأكلون صامتين، قبل أن يأكل أولادكم.

الرواية التي تنام في حضن حاملها الهارب ، في قبو ما من المدينة ، يضعها بين يديه ولا يجيب على الأسئلة التي تملأ سماء المكان ، ينام حالما بالمتصوفة المدفونين في أعمدة القلعة، ومساجد المدينة البيضاء.

كانت .... الرواية محرك البحث الطويل عن المحارق ، اجتياح هولاكو وإحراق العبيد ، وبكاء ابن رشد في طرقات غرناطة ، الملكات اللواتي صرن يلبسن الأسمال بعد السقوط العظيم لأسوار الحقائق ... وانطفاء النجوم في أدراج الفضاء الواسع .

الأشجار وهي تنحني لالتقاط المترجمات من شروحات الجالسين في العتمة الطويلة ... المكتبات التي تحكي الظاهر، ويخفى فيها باطن مسكوت عنه، تاريخ طويل لانتهاك الكائنات في صناعة التاريخ، وصناعة الجنون .

ها هو صاحب الرواية، صاحب الأوراق التي تحكي عنا، بين أسوار حجرية تمتد من الشمال إلى الجنوب كطائر ينفض غبار السماء ثم يعود إلى مدينته الأولى،حلب، الخفية عن كل شيء، رغم كونها الأكثر عريا بين مدن العالم .

لكنه، عري سطحي يشي بباطن خارق للحروف والمعنى، على ضفافها الأربع ، يتربع مجون الكون وحريقه في آن معا، وتشي لأطفالها بما لا تشيه لنا ، نحن الكبار .

وتبقى جهاتها حجرا يتوسل حجرا ليبوح .

دائرة من عبيد وساسة خيل ، كما أكد صاحب الرواية الذي لم يعترف باسمه بعد .

تقول ميس التي حاولت مرارا الاقتراب من رموزه ، لكنها لم تحظ سوى بليلة هادئة لا تزيد عن رعشات وقبل حارة وعري ... كعري حقيقة الأحجار القديمة في بوابات الأسواق التي تنطفئ ليلا كفوانيس الكنائس في زمن مقطوع عن العبادة .

يقول المغني العائد من رصيف بعيد :

- لا شيء أكثر أو أقل مما حصل، هكذا بكل بساطة، لا مزيد من الأسئلة يمكن أن ينفع ويضيف شيئا ...

لا تسألي الماء عن جوهر الماء ، ولا تسألي الحجر عن سر الحركة ! ... هكذا هي ... تأتي بكل البساطة ، وتطرح أسئلتها كما الحرب والسلم وعناقيد الغضب .

والإجابة لدينا جميعا .

" حين دخلنا كلنا قوس النار ، كان علينا أن نوقف الأشياء العزيزة عن التآكل أو ننتحر كمن انتحروا

بسيف الساموراي ، كتكفير عن ذنب الآخرين أو ذنبنا نحن .

هكذا فقط تمتد الورود لتملأ أفقا متعبا بالحريق، تغطي الشمس بألوانها وخضرتها الطاغية، وينتصر قوسها على التنين الذي حجب الأفق المنساب الذي كان يعطر رؤانا الليلية بالضوء والامتداد اللامتناهي لمزيد من أحلام لا نعرف إلى أي مدى كانت ستجيء جميلة ، تنعش ذاكرة الأطفال المتعبة ."

يقول إيبولا الذي يسميه نواطير المدينة بهذا الاسم لأنه يحمل فيروسا بيولوجيا قادرا على الإبادة .. لكن إبادة من؟!.

وحده إيبولا كان يعرف الإجابة ، لهذا سهرنا ليال طويلة ونحن نتوقع أن تتناثر إلينا منه بعض الصفحات، كي نكسر الحيرة ... وألم الانتظار المحض .

وبينما كانت رائحة الصفحات تشي بالانتشار ، كان ينتشر في مكان ما رعب يتناثر مع التراب .

أي رعب ! وحده إيبولا يعرف الجواب .

أطلق إيبولا لحيته ، وكان ذلك مصدر خوف لجميع من كانوا يلاحقونه، لسبب خفي ، قدروا أن في ذلك انتماء إلى فكرة تنم عن أحد طرفين يثيران الذعر فيهم .

ربما كان إيبولا يحمل مقولات المناصرين للظلال التي تهدم جدران سكينتهم ، أو آراء تشوش احتمالات استمرار أحلامهم داخل القلاع ، وفي كلتا الحالتين ، ثمة خطر قد يداهمهم ، لكنهم لم يدركوا أن في وجهه مجرد رغبة عارمة في تأمل ما جرى ويجري ، كي يوحي التفكير المطول برهبة البحث الرصين عن حقائق تختبئ في زوايا غامضة ، ويمسح ذلك التأمل عمقا موجوعا لا يرضى بالظواهر، ويبحث عن الباطن ، كي يتآخى مع الليل ، وأعماق الأفق الأسود في البحار المغلقة مساء، حين لا يجد البحارة على الشواطئ أي بريق ضعيف لضوء ، إذ تنطبق السماء على سطح البحر الأسود ويتماثلا .

" ثمة حبيبة أيها الشاب ، تنتظر أن تحرك سطوح الحقيقة التي تحملها في أوراق صفراء ، وتخفيها عن الجميع ، تحبك أكثر من نرجسه صباحية تمسح نداها يدان طفلتان ، تحلمان برقة ضائعة ، تحرك الروح ونحن نيام ، ترصد النجوم ونحن خارج أسوار الليل ، نيام أكثر من حجر.

كثيرون قالوا إنهم قرؤوا ما تحمل ، وكان يفيض عن حدود ما تريد أن تقول – أكبر من عناوينك، وأكثر غموضا من أن يفهمه الناس ، وذلك الإيبولا غير المعروف ، رغم أنهم حائرون بما ترويه

الرواية ، مزيجا غريبا من دهشة واعتراضات على العبارات التي تثير رعشة وضياعا في آن معا...

ما زالت ميس تحيك لك كنزه شتائية استعدادا لبرد قادم، لا تستطيع أن تراك فيه مجردا من دفء ممكن، تحيكه أصابعها التي عصرت معصميك بشوق لكنك كنت أكثر حلما بالسطور من أن تدرك ما تعنيه نظرات ميس ، لأن حجم الرواية فيك كان أكبر من أي شيء ، حب وحرب وكشف واعترافات ، ومفاجآت ، وعري ، وحقيقة سابقة على كل الحقائق ، ولغة تأتي قبل الحب والجنس والتدفق العارم لأنهار الدنيا والطيران الفادح لطيور العالم إلى الأفق المجنون الهارب."

فرح تقول " إنك أكثر خطرا منهم لأنك أخفيت طويلا حقائق كنا جميعا بحاجة إلى بعض منها على الأقل ، كنت متحفظا ، خائفا ، بخيلا على لهفتنا ، ولا تبالي باحترامنا وكان في حديث فرح شيء من الحقيقة ، لأننا المنتظرون الذين ينتظرون منك جوابا لا يأتينا منك غير الصمت المتأمل ."

ولأنك ، حين طال الانتظار ، صرنا جنات ضائعة .

كيف لنا أن نستعيدها بعد أن تفرج عن روايتك التي تروي عنا ؟

" كم أصبحت الرجل الأكثر أهمية بعد أن خبأت علينا مالنا وامتنعت عن البوح به؟"

خوفا على الأسطورة أو حفاظا على الحكاية نقية من شوائب التعذيب النادر .

هكذا كانت تقول فرح الغائبة عن مسرح أحداثنا ، لكن الحاضرة دائما في أرواحنا التي يعتصرها قلق كامن بين الشر اشف وزوايا غرفنا المخربة بالغبار.

- وفي الصباح الأخير للحكاية يأتي الصوت هادئا ، منخفضا ورصيناً .

- هكذا بدأت الحكاية !... تقرأ الصفحة الأولى على الصغار ، بينما ننتظر نحن صعود النار أعلى الجبل، كي تضيء الحقيقة أكثر ، تقرؤها أول الليل ، ويخفت صوتك مع هبوط الظلمة ، أكثر كثافة قريبا من نافذتك المغلقة التي تفتح بقوة رغبات العيون الحالمة بما وراءها ، وترصد الحركة الخفية في داخلك .

من الخارج الذي ينبض بالنعاس والليل ، مستودع الحكايات المخفية حيث ينبش بعضها نهارا حين يشاء آخرون خروجها ويخبأ البعض الآخر إلى موعد مفتوح .

وفي أول الصباح حين كانت المدينة تتهادى مع أصوات العصافير ، وبداية الحركة المتثاقلة الهادئة لبعض الناس المتناثرين هنا وهناك ، فتحت النافذة ونشرت الحروف الأولى في صفحات صفراء كأنك علقتها على حبل غسيل ، ليبدأ فصل الحكاية الذي

يحكي عن بحر دخل المدينة ، المدينة التي انتشر فيها التراب والغبار وتناسل الحجر ، لأنها محشورة في الشمال بعيدا عن خط الخضرة ، وحتى النهر الصغير قطع عنها كي تفقد الأنهار الصغيرة المجاورة ألفة خروجه صباحا ، مختالا بين شقوق الحقول المترامية على أطراف المدينة ، يلقي بجمله النهرية على الرجال المسنين المتقاعدين الذين يتمشون في شوارع الحديقة مثقلين بالملل الذي يصحب عادة الشعور المباغت بنهاية الرحلة ، وثقل ظلال الحياة ، وظلال الجسد الذي دخل قوس العجز .

يقول رجل اتٍ من وراء البحار، إن ميس لم تدخر جهدا في كشف الرواية ، أو صاحبها الصامت خارج الزمن ، لكنها تضيف أنه الداخل الحقيقي في كل شيء نمنا عنه أو صمتنا، أو خفنا كي لا تأكل جرذان سوداء محبوسة في أقفاص وجوهنا حين نفتح الصفحة الأولى من الرواية، أو تسمعنا زوجة الجار ابن الصانع الأكبر لأمن المدينة ورونقها الصاغر ، ونحن نستحضر الحكاية من صاحب الرواية الغامض ، الهارب من كل شيء لا يليق بمذبحة .ذلك الصاعد هدير القطارات كي لا تقلم أظافره أو ربما أظافر الرواية .

صار متعارفا عليه بين الناس أن اسمه الحقيقي المستور أو الوهمي أو المبتكر " إيبولا " الأفريقي أو شادي العربي . بغموض ما في أحلام من سموه بعد تخمينات طويلة .

شادي المنحدر من سلالة الإبادات الجماعية للأحلام ، الهندي الأحمر ، والناجي الوحيد من المحرقة الكبرى ، صغير على التاريخ الطويل ، وقوي على إخفاء الرواية السرية للإغتصابات الكبيرة .

تقول ميس خادمة الأدراج وممرات الأبنية ، حاملة الخراطيم كي تغسل بعض الأوساخ وكثيرا من الوهم وكماً أكبر من الدم الأنثوي .

تصرخ ميس آخر الليل ، بعد أن تلمح ظله يعبر المدينة، ((ضاع تراثنا مع الماء المرشوقة ، ولا مساحة تغفر لنا مجوننا على الأسطح العالية ونحن نتحاشى الرصاص المنخفض .

مسار الحكاية أطول من قطيع ماعز يمتد حتى حدود القارة الجديدة ، التي بدأت تاريخها باكتشاف بهي أخذته عن عشرات الملايين الذين قتلتهم كي تستوطن مزارع تبغهم، التبغ النقي ، الذي صدرته للعالم واستكملنا به مسار الحكاية ذاته)).

وتضيف ميس في لحظة صمت ثقيلة :

" هل تتكلم الرواية عن تاريخ البارود ؟! أم انهدامات الحجر القديم من جدران المدارس الصوفية، أم أنها تلاعب رملا ودخانا كشعر لا ضفاف له، لتدخلنا السر الذي رمانا جميعا إلى مصارف المدينة الصحية ، مع الأمطار الوسخة، صامتين كحجر تبرأ من تاريخه؟"...
تجيبها امرأة بالية

***

أنقذف البحر الكبير على أطراف المدينة ، ليفسح المجال لحكايات النساء صباحا وثرثرتهن مع فنجان القهوة ، مجتمعات يقتفين أثر الخطوط المظلمة في سطور " إيبولا " الذي أغرق الحارة بألغاز لا تنتهي. حاولت " حياة " المشبوهة بألاعيبها الجنسية بين النسوة ، أن ترمي صنارة تصطاد بها الطرف الأول للحديث .
- ألا تعرفن أن " سارة " كانت الخيط الأول الذي يبدأ الحكاية ، وعليها تجري بقية الرواية ، هل تذكرن سارة ؟
تتبادل النسوة نظرات ملؤها دهشة واستغراب ، غير مصدقات ، يتساءلن في أنفسهن فيما إذا كانت سارة هي نفسها الفتاة الشابة التي اختفت من الحي

ولم يعد لها حضور منذ زمن طويل ... بينما ضاع الشاب الذي أحبها على أرصفة الشوارع شهورا طويلة ثم اختفى أيضا في ليلة مرسومة له ، مع المطر وبرد الشتاء، والظلمة التي كانت تلف الأدراج والشوارع الضيقة، حيث سمع صراخه وهو يعوي أو يبكي أو ربما يتألم من ضربات ضارية، ولم يتجرأ آنذاك أحد على فتح نافذته أو النظر من الشرفات لرؤية ما يجري. هكذا كانت الرواية التي تعرفها النساء حسبما يسمعن من نثارات أخبار هنا وهناك .

سألت امرأة بعد أن وضعت فنجانها على الطاولة مستغربة:

- أتقصدين سارة ابنة حليمة التي خطبها عارف؟

أجابت حياة بتأكيد واثق :

- نعم – سارة ذاتها ، بها تبدأ حكاية هذا المجنون " إيبولا "، سمعه بعض المارة يقرأ أولى صفحاتها بصوت عال منذ أيام وهو يدور في الغرفة كرجل ممسوس ، يعلو صوته أحيانا ويضحك بقوة في أحيان أخرى .

- تسأل امرأة على طرف الدائرة التي تشكلها النسوة بفضول :

- من هي سارة ؟... أنا لا أعرفها!..

***

يصرخ إيبولا موجوعا :

ضاع تراث المارة ، وتراث الأطفال ..

أيها النائمون ... الغائبون في الزمن الخافت ، ليس لأولادكم تاريخ يرتكزون عليه كي يتعرفوا إلى المدينة التي أكلها الصمت ، ثم أكلتها بعد ذلك الفوضى الوحشية، في جعبتي أسرار تصل بينكم وبين أسِّرة ولادتكم ، وترفع بنجومها إلى سماء ما زلتم تهربون منها ، إذا رميت سطور الرواية لن تقدروا على مواصلة النوم ، أو الصمت ، أو متابعة لعبة الكتمان التي طالت .

ضاع تراث الأولاد ... وتراث سارة الصغيرة ، الموتى يقتتلون على موتهم الغادر ، وأنتم نائمون ، يبحثون عما يؤرخ لخديعتهم وآلامهم ، لهذا صار لهم تاريخ وأولاد يشعلون شموع ذكراهم في الخارج ، ضاع ما ضاع منكم ، فلماذا تصرون على معرفة أوراقي والصفحات التي أخبئها إذا كنتم لا تصرون أصلا على أسمائكم ؟!.

إيبولا العارف دائما بما تكتمون ، المسافر في تضاريس الأرض وتعرجات الحقائق ، وشقوق القتلة، سيبقى الهاجس الدائم الذي يؤرقكم ، ولن يكون لكم بهذا ، أن تدخلوا العالم القادم ، كقافلة جديرة بما يأتي.

كان حبا عارما وكبيرا يربط بين سارة وعارف ، الذي أضاع حبه لها بوصلته ، وصارت الحمامة البيضاء التي توجه مساره نحو الشمال أو الجنوب ، انتقلا إلى الحي للسكن فيه بعد مغامرة عشق طويلة حاربا فيها كل الاعتراضات ، ثم انتهى كل شيء بقطيعة مع أهلهما .

ولأن الحياة كانت ما تزال أفقا مفتوحا يخوضانه باكرا، كان عليهما أن يستكشفا ما قد يخرج مخبأ بين سطور أيامهما .

ثقب أحدهم ليلا جرحا في خشب النافذة المطلة على الشارع كي يراقب ما يحيكانه من مؤامرات لكنه بعد مشاهدات طويلة اكتشف أنها لا تزيد عن حب ومضاجعات، كان راضيا فيها عن المهمة الكبيرة ، لأنها على الأقل ، فتحت له فرصة مسموحة بسماع ومشاهدة تأوهات الأنثى والتعرف على ما ينتج عن حرارة حب يترجم عن نفسه بلقاءات وأوضاع لم يكن يعرفها .

إلا أن الرواية الأكثر قربا لما جرى كانت تؤكد أن عارف كان قادما ليلة الميلاد ، حاملا مغلفا مختوما ودخل منزله المؤلف من غرفتين وساحة صغيرة تتسع لوضع مكتبته وبعض اللوحات الصغيرة.

xبعد أن تجاوزت الساعة الواحدة والنصف ، اقتحم رجال مسلحون المنزل ، وأخذوا عارف بعد

أن تعرض للضرب والركل في زحمة الأصوات العالية المتضاربة، واستغل الرجل الذي بدأ المهمة بالتلصص من ثقب في النافذة ، الفوضى التي حصلت من قبل زملائه، فبقي في المنزل واغتصب سارة حتى الصباح، ثم أخذها معه إلى غرفة وحيدة مبنية في كرم ، بعيدا عن قريته على مستوى مرتفع عن السهول المترامية ، بعد آخر بيت من بيوت القرية ، وبعيدا عن الناس الذين كانوا يقطنون في الأسفل ، حيث لم يكن ممكنا أن تُسمع من هناك أية حركة أو صوت يصدر عن نشاط الناس .

ظل يرتاد الغرفة لأكثر من شهرين ، ثم اختفت سارة بعدها ولم يُسمع عنها شيء .

بينما عاد هو لثقب نافذة أخرى كمهمة ثانية من المهام الموكلة إليه .

أثار الحادث فزع سكان الحي ، ودارت قصص وأحاديث طويلة أضافت فيها النساء ومعهنَّ الرجال احتمالات غير متوقعة للأسباب التي جعلت هؤلاء المجهولين يقتحمون بيت عارف ، ثم بدأ وقع الحدث يخبو ، بعد أن مل أهل الحي من ابتكار احتمالات وتفسيرات جديدة ، وعادوا لمزاولة حياتهم بهدوء ، دون أن يدركوا أن ما حصل بدأ ينمو في ركن ما من حيهم ليصبح أسطورة لها ألف تأويل ، أثارها كل من فرح وميس اللتين كانتا تبحثان عن سر

اختفاء تلك المرأة الأليفة الهادئة ، والصديقة التي تترك انطباعات لا تنسى عن الحرية والحب ، والصداقة الحميمة التي يمكن أن يتبادلها الناس ، والتي رسمت لهما الأفق المتسع الذي صارتا تتحركان فيه بوعي تجاوز رتابة أسرتهما وحياتهما الجافة ، بمزيج من حنين وموسيقى وأحلام بحرية تكسر الحدود التي فرضت عليهما من كل مكان.

تقول فرح إن الغربان تكاثرت في ذلك المساء فوق بيت سارة وعارف ، لكن ميس عارضتها بأنها لم ترى الغربان بل رأت زهور عباد الشمس تكبر بصورة خرافية لتغطي جدران بيتهما الخارجية، وتتراقص مع قوس الليل .

وحين خطر لهما أن تدخلا البيت خلسة من النافذة الخارجية ، مدفوعتين بفضول لمعرفة ما كان موجودا فيه بحيث استدعى هذا الدخول الصارخ ، بتلك الطريقة الوحشية من قبل هؤلاء المجهولين ، وجدتا قصاصات ورق ومجموعة شعرية مخبأة في مغلف أصفر ، ولم تجدا أي شيء آخر من الأشياء العادية في المنزل ذا أهمية يمكن أن تستدعي ما حصل .

أخرجتا معهما مغلف الشعر بعد أن خرجتا من النافذة ، لتخبئاه خوفا من ضياعه .

والآن ، في الوقت الذي ظهر فيه " إيبولا " الصامت، كان قد مضى على غياب سارة وعارف عشر سنوات ، دون خبر ، ولم يعد الناس يجرؤون على الاقتراب منه سوى بعض القطط والعصافير ، التي كان يخيل لميس أنها كانت ترتاد المكان لتأخذ معها بعض الأسرار التي لا ترى من قبل الناس، وتخبئها في مكان ما على طرف جبل قريب .

ميس التي هاجر ابوها وامها الى تونس،لم تكن قد تجاوزت الثامنة.عمتها تقطن معها في الشقة الصغيرة كي لا تكون وحيدة.

تسمي فرح"الدلوعة" الاكثردلالا في الحي،فرح ذات النهدين الناهضين اللذين قلما شاهدت مثلهما،كما كانت تقول ميس.النهرالذي كان يرفد سنوات عمرها كان يقارب السبع عشرة سنة.مزهوة بدنيا تهندسها روحها البكرعلى طريقتها التي ترصد بعدستي عينيها مشاهدالخارج دون ان ترتبط بها،او تمد أي جسربين داخلها وما يمتد حولها.تخبىء في نفسها حزنا دفينا على الاب الذي قضى بحادث سير،لكنه اقل وطأة،بسبب عمرها،من الثقل الذي رماه في روح أمها التي تميل الى الصمت في التعامل مع ما يصيبها.

لميس عينان واسعتان لامعتان توحيان بالدموع، لكن نظرتهما تحمل قدرات كبيرة على الملاحظة السريعة تنمان عن ذكاء شديد ممزوج مع حنين دافق.

بينما كانت فرح،الصديقة الملازمة لها،ذات شعر طويل وجسد ساحر،رغم صغرسنها.

***

انتبهت كلاهما إلى أن النباتات في الأصص التي وضعتها سارة على شرفتها لم تذبل، بل كانت تورق وتزهر في مواعيدها، وكأن أحدا كان يدخل المنزل سرا، ليعتني بها ويسقيها ثم يمضي دون أن يراه أحد، لكنها تذبل فقط كشجرة قتيلة في ذكرى اليوم الذي تعرضت فيه سارة وعارف للاعتداء ليلا .

كانت الطيور تلاحق الفوضى لترتيبها حول البيت، ولم يكن أحد ليلاحظ ما انتبهت إليه كلاهما ، لأنهما كانتا تسكنان البيت من الخارج، كأنه صار الأسطورة التي أعطت لذلك الحي الممل أهمية ما ، وغيرت الإيقاع الذي كانتا تنظران من خلاله ، بحيث أضافت لحياتهما عمقا يجعلها جديرة بأن تعاش ، وتملأ عليهما رتابة أيامهما ، فصارتا تلاحقان الخيوط الخفية للحكاية في أغلب الأوقات .

***

أم عباس لا تأبه ، هي وأبو عباس زوجها ، لاهتمام أهل الحارة بقضية سارة وزوجها ، وحين يصدف أن يتم الحديث في الموضوع ، يجيبان بلغة تداري الآخرين ، لكنها تستبطن إحساسا ضمنيا بعدم التعاطف الماكر معهما ، ذلك لأن أبا عباس كان له ماض عريق في التقصي واعتقال السياسيين من مختلف الاتجاهات .

ظلت أم عباس في العشر سنوات الأخيرة ، بعد أن كبرت هي وزوجها الذي تراجع أداؤه الزوجي وحالته الصحية تعاني من وحام يأتيها كل فصل ربيع ، وحام قاس ، أقسى مما لو كانت حاملا فعلا ، رغم أنهما لم ينجبا أي طفل .

وكانت في هذه الفترة ، تصاب بمزاج غريب ، تأكل الغضار وصابون الغار ، وتتقيأ بحيث تدفع أبا عباس إلى الخروج من المنزل تائها لا يجد تفسيرا لما يحصل لها ، وأحيانا ينتابه شك حقيقي أنها حامل فعلا .

يجلس على ناصية الرصيف مقابل باب الدار يشرب الشاي ويدخن ، ويتبادل أحاديث لا هدف لها مع الرجال المسنين أو المتقاعدين .

الذين يتحادثون همسا في لحظات خاطفة ، عن خبثه وماضيه ، ورغم أنه يلاحظ الأمر ، لكنه لا يبدي أية ردة فعل ، ويتجاهل تلك التصرفات ، بينما

يسرح ذهنه فيما يمكن أن يكون قد حصل لأم عباس التي ملأت البيت قيئا وبقايا غضار وصابون .

***

بدأت الشمس تغرب بظلال ضوئية برتقالية خلف المنازل التي ترتصف بسكون على طرفي الشارع الضيق ، وخرج السنونو من جحور مجهولة يطير واطئا على نحو يزيد المشهد وداعة وألفة ، بينما خرجت بعض النساء يرششن أحواض النبات الصغيرة بالماء ، وخرج أبو ياسر، صاحب الدكان الذي يبيع كل شيء يمكن توقعه من دكان في الحي وأشياء أخرى لا تخطر على بال من يراه من الخارج ، كحانوت تقليدي يبيع ما تحتاجه النسوة من مساحيق غسيل وصابون وألبان وألعاب أطفال ، خرج يرش الرصيف المقابل بالماء لتخفيف الغبار كي لا ينتثر مع الريح ، وكانت فاطمة تخرج ثم تعود إلى الممر الضيق الذي يفضي إلى منزلها ، بعباءتها الرقيقة السوداء، كي تراقب أجواء الحارة ، ولم يكن من الصعب على جيرانها أن يفهموا أنها كانت تنتظر ضيوفها الذين يأتون كل فترة كي يسهروا ويمضوا ليلة ماجنة في حضنها ، يقدمون

لها فيها بعض الهدايا ويعطونها تعويضا رمزيا عما كلفتها الحفلة الحمراء .

كانت ميس وفرح تتحرقان لمعرفة ما كان يجري في الليل داخل بيتها، إذ كان الأمر صعبا ، خصوصا بوجود رجل غامض يضع مسدسا على خصره ويحرس الليلة من غزاة محتملين يمكن أن يعكروا صفو السهرة السحرية، وكانت فرح تسأل ميس في اليوم التالي بعد انتهاء حفلة فاطمة، لماذا يبدو عليها التعب ويلوح في عينيها توتر مراقب، بينما تخفي بعض آثار القبلات الخشنة التي تترك بقعا حمراء وزرقاء على صدرها ورقبتها، حين تخرج لشراء حاجاتها من صاحب الدكان أبي ياسر،الذي كان يبتسم في سره بخبث وهو يزن لها السكر بهدوء .

لفاطمة وقصتها أكثر من حكاية وتأويلات يرصدها أهل الحارة ، فأبو ياسر يحكي قصة عن ماضيها مختلفة عن قصة " حياة " التي تشبهها إلى حد ما ، إلا أن حياة تمارس مجونها خارج الحارة . وأبو عباس يروي ماضيها بصورة أكثر غرابة من الآخرين.

قالوا إن أبا فاطمة اتفق مع أحد معارفه ، بعد أن ضاقت الدنيا عليه ، وكان من النمط الذي لا يحب العمل، ويستسهل الكسب السريع ، بعد أن أعطاه

الأخير مبلغا جيدا ليبدأ به مشروعا صغيرا ، استقبله في منزله ليلا كضيف ليرى فاطمة التي لم تكن تناهز آنذاك الرابعة عشرة ، رتب معه فيما بعد موعدا ليرسلها إليه ، تعرضت فيه فاطمة لاغتصاب الرجل مع صديق له ، وبعد الانهيار النفسي الذي أصابها ، فقدت ثقتها بأبيها وأقاربها وكل من حولها ، ثم تنامت فيها ، بعد جلسات حديث وإقناع من أبيها ، رغبة في الانتقام ، لكنها لم تستطع أن تنفذ رغبتها، لم تكن لديها القدرة على الوصول إلى عدوها الذي اختفى ولم يعد يظهر في أي مكان ، ثم بدأت توافق على اقتراحات أبيها أن يذهبا ويعملا في مدينة أخرى ، يقدمها إلى الرجال مقابل مبالغ يتقاضاها هو بنفسه ، ثم انفصلت عنه بعد سنوات واستقرت للعيش في منزل صغير في حارة " السيوف " حي أبي عباس وسارة الغائبة وحياة ، وفرح وميس المستكشفتين الباحثتين دوما عن حقائق مخفية.

أمطرت في حينا فترة طويلة تزيد عن عشرة أيام ، وكنت فيها أراقب سيول المياه التي غطت الشوارع ، أنا وميس ، كنت خلالها أعود من المدرسة مبللة ، وكانت مصارف شارعنا لا تقوى على ابتلاع الماء المنهمر بلا رحمة ، وكنت أحسد ميس لأنها تقدم الثانوية العامة حرة بلا مدرسة ،

الليل يهبط باكرا بسبب الغيوم السوداء التي تطبق على الفضاء من فوقنا ، وأنا أراقب الذبول الكئيب الذي أصاب شارعنا الذي كان لا يخلو من حركة الرجال والنساء اللواتي لا يمر أكثر من يومين أو ثلاثة دون أن تنتشر بينهم رواية جديدة عن حادث جديد أو قصة لم نسمع بها من قبل .

فكرت أنا وميس أن هذه القصص لا بد أن تكون من وحي خيال قارئات الفناجين حين يتداولن أحاديث الجلسات الصباحية ، أو ربما تكون حاجة داخلية لنسج حياة مغايرة داخل الحياة التي يعشنها ، نوع من التنفيس عن أحلام يرونها مساء وينسجنها صباحا في روايات مختلفة ، سميتُ أنا وميس حينا حي الروائيات كما اتفقنا من قبل على تسمية بلدنا البلد المحتفل بالسراب دائما .

خرج " شادي " من غرفته بعد أن توقف المطر ، راقبناه أنا وميس ، وكان يبتسم لنا بسمة ناعمة ودودة، واستطعنا أن نلمح من الداخل أوراقا معلقة على حبل يشبه حبل غسيل ، وكأنها كانت مبللة بالمطر الذي توقف منذ أيام .

كأن نظرات شادي كانت تقول لنا :

" توقف المطر ، لكن لم تتوقف الحكاية ." . لأن حركته ونظرات عينيه كانت قادرة على الإيماء لنا بهذه العبارة أو هذا المعنى .

صارحتني ميس أنها تحلم به في نومها ، وأنه يعيش معها أينما ذهبت ، قالت لي إنها تحبه حتى لو كان ذلك حبا عن بعد أو حبا من طرف واحد ، وأنها لم تعد تقوى على نسيان صورته المليئة بالعتب على الدنيا وعلى الأشجار التي تكسرها الريح .

وكنت أضحك لأني لم أكن أستطيع التصور أن مثل هذا الكائن يمكن معرفة شيء عنه أو لمسه . كأنه خيال وحقيقة في الوقت نفسه ، وأضحك في سري حين أفكر أن ميس تحب أسطورة غامضة الملامح ، تعاقب من يتابع خيوطها فلا تشي له بشيء عن نفسها ، عن بدايتها ونهايتها، وسرها ، كأنها تتهمه بالتقصير أو التواطؤ ، أو السكوت أو ربما التآمر على نفسه .

كأن الشمس كانت تغير مسارها كي تلقي بأشعتها على غرفة شادي ، صاحب الرواية المبللة ، كي تجف أوراقها ، شيء ما حصل له في الأيام العشرة إبان هطول المطر .

فتح شباك نافذته كي ينشر أصيصين من ريحان وورد على طرفيها ، ربما ليخفف الغرابة والقسوة عن مظهر غرفته ويخفف ثقل صمته الذي حيرنا وأدخلنا تحديا كبيرا مع أنفسنا كي نتعرف إلى أسراره .

كنا أنا وميس نرى غرابة تتبع من زوايا نافذته التي تفتح دون موعد ، فتفاجئنا بفيض من الإحساس الغامر بالفضول لمعرفة أشياء كثيرة تتطاير في خيالاتنا ، ويفيض معها إعجاب لا نعرف سببه بذلك الشاب الذي يحارب صراخ فضولنا وشوقنا بصمت هادئ رصين .

كان ينظر أحيانا بخبث إلى جسمي مبديا إعجابا خجولا بصدري ترافقه ابتسامة تثير في مزيجا من الاستغراب والغيظ في الوقت نفسه .

ولا تنتبه ميس السارحة فيه إلى ما يصدر عنه من حركة أو ابتسامة لأنها تكون غارقة في بحار لا مرافئ لها من حب مجنون مكانه الهواء والمسافات المترامية ، لا مكان فيه لكلمة أو نظرة قريبة أو لمسة وكان هذا من حسن حظي ، كي لا أفقد ميس بسبب الغيرة .

لكن ميس في عشية ذلك اليوم ، دخلت غرفتها وبدأت تبكي دون أن أعرف السبب رغم إلحاحي في السؤال عما كان يبكيها .

واضطررت في تلك الليلة أن أنام عندها كي أخفف عنها، فأخبرتني أنها كانت تبكي لأنها رأت شادي في نومها شيخا يلبس عباءة بيضاء ويطير مغادرا حينا ، والكل ينظر إلى رحلة غيابه بحزن وصمت .

أحيانا أرى أن لميس قلباً مرهفاً وكبيراً، وأحيانا لا أرى فيها غير مجنونة تبحث عن سراب .
صغار نحن ... لكن الزمن صغير علينا أيضا ، وكذلك الأمكنة التي لم تكن تجيب على تساؤلاتنا،عن جرح يكبر على أرصفة الحارة ويتناثر ليطال البيوت المعلقة بفضاء الغيب ، ربما لأنها،ككل الناس من حولنا، تظن أننا صغار وليست أسئلتنا سوى محض تساؤلات مستكشفة ننطقها ولا نعرف عمقها أو معناها .
وحدها نظرات شادي، كانت تقيم لكياننا وزنا وتمنحنا بعض الثقة أحيانا .
ربما كما قالت لي ميس ، إنه وحده يعرف الحكاية الكبرى ، وأن هذا قد يعني أننا جزء مهم لديه من الحكاية.

***

ولأن الينابيع ، أكثرنا رشاقة وسرعة ، لم تغادر روحنا بعد ، ولم تتخل عن جرارنا العطشى ، تفاجئنا أخبار عن قاذفات عملاقة تضرب بلدا كبيرا لا تفصلنا عنه سوى براري تقلص أحلامها المسافة ، لا نفهم كثيرا ما يحصل بجوارنا ، ولا تعنينا لعبة الكبار ، لكننا نأسف لصور القتلى والأطفال

المحروقين وبكاء النساء ، يخبروننا أنهم يسقطون دكتاتورا اضطروا إلى التدخل لإزاحته ورفع وطأته عن الناس ودرء أذاه عن جيرانه المتعبين من جنونه ، ونستمر أنا وميس في لهونا حيناً ، واستكشافاتنا المرحة ، ولا تغيب عنا الأحجية الكبيرة التي أدخلها شادي إلى حينا ، وأدخل معها نجوما تشعل لهفة الحب فينا ، ونحن نتفتح كوردة لاهبة ، تحلق فوق رؤوسنا خيالات رومانسية قلمت الأطراف الناتئة الشوكية فيها ، الطفولة التي كنا قد خرجنا لتونا منها، مترعات بالأحلام التي تلون الغبار من حولنا بألوان لا تراها عيون الكبار ، ألوان زاهية تجعل لملمس الحجر معنى آخر مختلف عن المعنى الحسي الجاف الذي يلازم صلابته ، وتجعل السماء أفقا طليقا ، وحده الذي يستطيع أن يحتضن تحليقنا وطيراننا المجنون .

أدخل منزلنا فأرى أمي تحمم جارتنا المريضة التي هجرها أبناؤها ولا نعرف شيئا عن زوجها ، لأنها لا تحكي أي شيء بخصوص هذا ، كأنها لا تريد ذكره لأسباب لا نعرفها ، لكن التفسير الأرجح أنه قتل ثأرا لأنه اختلف مع أحد كبار تجار الهواء الذين تكبر ثروتهم ولا يستطيع أحد معرفة مصدرها ، فأطلق عليه النار وقتله ، وردا على فعلته كانت جارتنا أم وليد جالسة ترضع طفلة في حضنها ،

حين خرج الجميع وتردد آخر رجل فيهم بالخروج فعاد وصوب مسدسه على رأس الطفلة الرضيعة .

يا الله ، كيف استطاعت أم وليد تحمل هذا المشهد ؟!... خرج أولادها وغادروا البيت خوفا من انتقام آخر، لوحت بيدي لأمي التي كانت لا تستطيع أن تخفي حنانها ودموعها على الدوام ، فطلبت مني أن أحضر المناشف .

ترددت أخبار من التلفزيون في زاوية الغرفة خلفي ، تفيد بأن طلقة دبابة أصابت طفلة في الثانية من عمرها خلال الأعمال العسكرية الدائرة في البلد الجار التي قامت لدرء خطر أسلحة دمار شامل قد يساء استعمالها !...

تابعت أمي تجفيف جسم جارتنا التي بدت صامتة، تبكي حينا وتضحك حينا آخر وهي تميل لتقبيل يدي أمي ، وأمي تدفعها مرحبة ومعتذرة .

تغمزني بينما تلقي المنشفة على رأس أم وليد قائلة:

" ما حصل لها يحصل الآن هناك "، وتشير برأسها إلى التلفزيون .

أدخل لغرفتي واستلقي على سريري ، وتتراءى لي صورة شادي عاريا يقترب مني ، جسده مشدود يافع وقوي وبشرته السمراء ترفع حرارة جسمي ،

أسرح بعيني في سقف الغرفة وأضع الوسادة بين قدمي بعد أن أخلع سروالي .
وأمضي معه ساعة ساحرة تنتهي بإحساس مدمر بتأنيب الضمير ، " أنا أخون صديقتي ميس .".

***

" تجار المخدرات يصدرون لنا السلوى ، يقول أبو عباس في جلسة مغلقة ليلا مع أصدقائه ، ويقهقه ، ما الذي كان سيحصل لنا لو أنا هذا الاختراع ليس موجودا ؟!...
يدخن الرجال الأربعة لفائف التبغ مع الماريهوانا وهم يفجرون ضحكاتهم على أي تعليق يصدر من أحدهم . "
قالت حياة التي كانت تشرب قهوة المساء مع إحدى صديقاتها في بيتها المقابل لبيت أبي عباس الذي كانت تنتشر منه رائحة تعرفها جيدا .
وتصغي إليها النسوة بلا أي تعبير يصدر عن وجوههن .
تشير إحداهن لها وهي تضع يدها على فمها لكي تسكت حين يلاحظن قدومي . ثم تتابع بصوت منخفض بعد أن أخرج : " كانوا يحكون عن أشياء هنا وهناك لا تخطر على بال .".

- ما الذي كانوا يتكلمون عنه ؟ تسأل امرأة .
وقبل أن تجيبها حياة ، تمد إحداهن يدها على فخذ حياة وتتلمس نعومته وتسألها :
- يبدو أنك تحضرين نفسك لليلة مخملية ! فتضحك حياة .
غيرت رأيي في متابعة حديثهن من خلف الجدار المجاور للباب الخارجي وخرجت أستنشق هواء أكثر نقاء مما يدور من حولي ، فالسماء والأشجار وحتى العصافير والسنونو تبقى كما هي ولا تتغير أما هم فيتغيرون ، وينبشون مفاجآتهم كل يوم .
أجلس على طرف الرصيف وأنا خارج كل شيء ، ولا أدخل أي بوابة تفتح مصراعيها لي إلا إذا كانت توحي لي باحتمال أن أرى ما يخص عالمي الذي لا أشعر أنه ينتمي بحال من الأحوال لعالمهم هناك .
فأرى استطالات سوق النباتات والورود على شرفة سارة وعارف الغائبين ، وأرى ظلا من قوس قزح يسور منزلهما من الخلف كأنه يعلن عن انتمائه لعالم الغائبين أو المغيّبين ، ولا يبالي بمن يسيرون على الطريق ، ويعرفون أنه محفوف بالوهدات والحفر والشوك ،
لكنهم يسيرون مع ذلك، على الطريق غير مبالين وفرحين .

***

" وردة غرناطة ذبلت ، وضاع تراث الماء ، نمشي الآن على عظام آبائنا الموتى ونحن نحفل بحياة ترسم حركاتنا بموازينها وموازين سادة الفضاء ".

قال أبي قبل أن يموت معاتبا كأنه يودعني رسالة أحملها معي : لا تنس أننا هنا ، متنا قهرا ، فلا تمشي على قبورنا وتنسى أننا كنا نصارع كي تبقى حديقة النباتات والورد الجوري في منزلنا مورقة باسقة ، لا تنس الغبار ، ولحظات الرعب .

يصدر صوت واضح من نافذة شادي ،كأنه يكلم أحدا، لكننا ندرك أنه يكلم نفسه في لحظة هذيان أو ألم أو ربما تداعي ذكريات .

- ضاع تراث سارة وعارف ، كما ضاعت فجأة روح فاطمة بيد أبيها ، يتابع شادي ، ونحن نصغي بتلهف لصوته الذي تظلله الغيوم ، ويندفع فينا شوق لأن يتابع حديثه و لا يتوقف ، وترتمي غيمة وردية على طرف جدار غرفته العالية قليلا ، كأنما لتحجب ظل الكلمات أو تجعل لها وقعا مقدسا في نفوسنا .

ثم يتعالى صوت بكاء متوسلا حينا ومتمردا حينا آخر ، يغوص عميقا في بئر ألم ترسمه الارتفاعات المفاجئة والهبوط الصارخ لنبرات البكاء ، نفاجأ أنا

وميس ونصاب بالخوف منه وعليه ، ونبتعد إلى الوراء بخطوات ثقيلة كي تصل أقدامنا إلى بداية الشارع ونمضي كأنما فاجأ عمرنا الصغير جبل كبير من الغرابات والأساطير وأشياء بعيدة عن عالمنا الذي يعيش في دائرته، يرى ما في الخارج ولا يُرى من الداخل ، نحن مكتشفات دهشة القبلات ، الحالمات بعري الذكورة ، السارحات في أحلام تحرضها الأغنيات الرومانسية ، لا نعرف عن ألم الدنيا شيء ، بل نرى صورا صادمة غريبة تدهشنا ، لكننا لا نفهم سببها أو عمقها ولا ندرك أنها أكثر حضورا في الدنيا التي نعيش فيها من حضور الفرح الذي نعيشه ولا نعيش سواه في عالمنا الجديد الصغير.

تقول أم فرح : الليلة تخبو المرأة التي لم تر ابنها منذ خمسة عشر عاما ، كانت تهذي به وهي نائمة، وتقول لي إنها ما زالت تراه بين عينيها كلما صحت وكلما نامت .

- أتعرفين يا أم فرح كم يبلغ عمره الآن منذ أخذوه ؟

الآن أصبح في الأربعين ، أنجبته في الشتاء ، أو ربما أثناء العدوان على مصر ، لم أعد أذكر بالضبط .

صوره معلقة على جدران غرفتها ، كانت قبل أن تصاب غضاريف ركبتيها ، تدور في الغرف ، وتحدث نفسها ، كأنها تبحث عن شيء ضيعته ، ولا أحد يستطيع أن يعرف عما كانت تبحث ، دورانها في الغرف كان أكبر من بحثها عن ابنها علي ، كأن علياً تشعب في ذاكرتها التي تاهت ، وتحول إلى آلاف الأشياء الضائعة ، في كل يوم تبحث عن شيء جديد ، حتى يتوه أولادها معها ، ومهما كثرت أشياؤها الضائعة التي تخاطبها وهي تبحث عنها ، كان ثمة شيء واحد هو المفقود الوحيد ، الضائع الذي لا تنساه ، ولا تنسى أنه مختلف تماما عن أشيائها الأخرى ، في جلسات خلوتها ، كانت تحدث نفسها أو تتحادث مع أشخاص لا يراهم جيرانها أو أولادها ، تقص عليهم قصصا طويلة ، ويقصون عليها حكايا هي المحظوظة الوحيدة في معرفتها ، لأن الآخرين كانوا بعيدا عن قفصها الزجاجي المغلق على عوالمهم ، ووحدها كانت تدرك أشياء تسمعها من الغرباء اللامرئيين ، ويتوق الآخرون بشوق أن يعرفوها ، لكنهم لا يصلونها أبدا .

تداعب أم علي الحبق في حوض حجري قرب جدار غرفتها بلمسات ناعمة وتقول كأنها تخاطبه :

ـ قلت لك أن تترك هذه الجماعة ، كنت أحس أنك ستغيب عني بسببهم ، وهم يخدعونك بشرب العرق

والكتب والحديث عن الثورات ، أية ثورات كنت تبحث عنها ، ألم أكن أنا أهم عندك يا ابن الكلب منها ، بماذا تفيدك ، تلك اللعينة ، أهي أهم مني وأخلص إليك مني ؟... والله لم تكن ثورة ما كنتم تتحدثون عنها... إنها فتاة تتخاصمون عليها ولم تخبروني ، ولهذا دخلتم جميعا السجن ...

ثم تنهار ويتقطع صوتها وتنخرط في البكاء بعد أن تنهض مدمدمة لعنات غير مفهومة وتمضي إلى مطبخها .

الليلة خرج علي، وأمه سارت في اتجاه آخر ، فاضت روحها، وعاد هو إلى الحياة من جديد ، صادف في طريقه طفلا ففاجأه أن يرى كائنا بشريا صغيرا على وجهه ملامح البراءة، ولا يستطيع التكلم، انحنى إليه وقبله ولمس وجهه مصدقا وغير مصدق، بعد السنوات الطويلة التي لم ير فيها سوى الرجال.

دفعة كبيرة خرجت، لكن الأصدقاء الذين كانوا في الخارج – أصدقاءهم القدامى، استغربوا صمتهم الدائم، وعدم مبالاتهم بالنقاشات المحتدمة أو حتى بأفكار الحرية والثورة والديمقراطية وغيرها، أصبحوا موتى يتحركون بأرواح مثقلة بذكرى الفراغ .

يريدون العودة فقط إلى فضاء الحياة ، أن يعيشوا فقط في أرض فسيحة .

***

" يا زهر الدنيا ، يا طير الدنيا ، يا رب أنت الذي تنتشلني محترقا ."[1]

يغني علي في غرفته ، بعد أن حكينا له عن أحوال أمه في غيابه .

ثم ينام كالطفل الرضيع في سريرها الذي انتظرته فيه طويلا .

***

المراوح تضرب الهواء ، والغبار يملأ جحور السنونو ويرش عيون المارة في شارع الصمت من الجهة الجنوبية وشارع المجون من الجهة الشمالية ، أما مركز الوسط فهو شارع الألم والتعب الذي لا يبوح عن نفسه إلا في ساعات خفية عن الزمن .

" ليس ما نراه هو كل ما أخبرتنا عنه أمهاتنا " . تقول ميس ، وآباؤنا غائبون عن التفاصيل كلها ، أخذوا دُماهم ومضوا وراء أوهام دنياهم ، رقصوا

[1](- مقطع من قصيدة الأرض اليباب لأليوت، يتحدث عن مناجاة القديس أوغسطين لنفسه بعد أن عاش الملذات الجنسية في قرطاجة وعاد.

مع الأمطار ، وكذبوا ، وخانوا وانتحروا ، لكنهم لم يعودوا، رجالا حقيقيين أو آباء كما كنا نحلم بهم أن يكونوا ، خرجوا من أطراف البيوت كضباب شتائي لا يستمر أكثر من ساعات وتركوا أمهاتنا لريح الحكايا .

الرجال الوحيدون الذين ندين لهم بذكرى لا نقوى على نسيانها هم من قتلوا على الطريق ، الطريق الشوكي ، مشوا حذرين من حفر النار والأقنعة السوداء ، لكنهم قتلوا على الطريق ، أثناء المشي على الطرقات ، خانتهم أقدام الآخرين ، الورود وحدها نبهتهم إلى مخاطر الامتداد القادم وحتى الشوك ، لكن أقدام الآخرين كانت الخدعة الكبرى .

ترمي ميس جسدها على السرير ، وتفتح أبواب روحها لخيالات قادمة من النافذة العالية التي يظللها ضوء يتناثر كانكسارات الشمس على موج البحر . يحضرها شادي ، فتدفعه للجنون ، تجعله يسير في اتجاه يجرده من أسطورة البحث ، ليرتمي بجانبها ويداعب صدرها المترع بحنان أمومي مبكر ، تنهار متراخية أمام عذوبة جسده وتراقص أصابعه فوق شفتيها وجفونها وبطنها، ثم تخبو ويتوقف شادي عن الحركة كفيلم سينمائي قطع فجأة ويحضرها الغياب العارم الذي يلف بيت سارة وعارف ، لكنها تحتمي بمساكب الورود التي تنبت عكس إرادة الطبيعة على

شرفتهما ، وتظلل روحها بقوس قزح الذي يخرج خلف جدران منزلهما، لتستحم بعائلة الألوان المطهرة التي تمنح صفاء لا يضاهيه سوى صفاء الفجر الذي يباغتها حين يصفق الهواء طرف نافذتها بصوت مسموع، لتستيقظ وتسرح في الهدوء الطاغي الذي يلم الشارع في حي السيوف .

الجميع نيام الآن ، حتى الحقائق الكبرى مؤجلة حتى بزوغ النهار ،" تقول في نفسها " ، ثمة أشخاص ليسوا نياما لكنهم على هامش الحكاية ، أي كون رقيق هذا ؟! تقول ميس في سريرتها .

- إيبولا مرهق الآن ، ليس كأي وقت مضى ، ثمة حروف يتعبه رصفها وهي تنزلق لتشوه الرواية ، تناديه كل أشياء الدنيا كي يلملم ماء سفح على الأرض ، وعصافير طُيرت في اتجاهات خاطئة . " تسمع ميس صوتا أنثويا يهمس خلف النافذة في الخارج . تصمت قليلا ثم تغط في نوم مرهف.

كانت أم فرح تخبئ فضولا لا تفصح عنه ، لزيارة " إيبولا " المعتصم في غرفته .

امتلكت الجرأة في أحد المساءات وطرقت باب شقته الصغيرة ، فتح الباب بعد انتظار ، وأدهشتها هيئته التي يبدو فيها كرجل مريض بالسل منذ زمن طويل ، لا يهتم لحلاقة ذقنه أو حمامه .

رحب بها بتردد وطلب منها أن تدخل ، كانت الغرفة تعج برائحة العفن والدخان وبعض زجاجات النبيذ ، سألته بحرج داخلي :

- لماذا لا تخرج من غرفتك يا بني ؟! الجميع يعرفك في الحارة، لكنك غامض ولا تتواصل مع أحد. كأن فيك أسرارا مستغلقة لا تنوي أن تبوح بها لأحد . يبتسم إيبولا ابتسامة ناعمة .

- لا لغز لدي ، هكذا أحيا ، والدنيا لا تنقص شيئا بدوني ، إذا كان المرء مشوها فهذا سبب كاف لئلا يضيف تشويهات أخرى وتعبا آخر لروحه .

- أقصد، بهذا تحول نفسك إلى لغز يصعب حله نظراتك توحي بآلاف الجمل والأسرار التي تخبئها، لكنك تلازم المكان وصمتك أثقل من صخور الدنيا، يقولون إنك صاحب الرواية، ما هي الرواية ، ما قصتها ؟ ما الذي تنشره على حبال غرفتك ونافذتك ؟.

- أوراق تحفظ ذكرى الأمكنة هنا ، تحفظ أسرارا يجب ألا تطوى في ردهات الزمن المعتمة ، الكل يعيش حصارا وعتمة ، ويتنقل صامتا ، يعيش بعيدا متناسيا الدائرة المغلقة الخالية من الهواء حوله، لهذا ستبقى الأوراق شاهدا ، شاهدا يؤرقهم ، ويؤكد فراغهم ، وخدعتهم الكبرى ، إنها الطفل الذي كشف أن الإمبراطور في موكبه لا يمشي ملفحا بثياب

خيوطها من ذهب بل هو إمبراطور عار ، ذلك لأنه لا يخاف ، ويتكلم ببراءة عما تراه عيناه بكل دقة وإخلاص لما يرى .

كم أصبحنا هذه الأيام نفتقد طفلا كهذا !. فقدت حياتي معناها دون طفلي هذا ، وحين أنظر إلى الجميع في الخارج ، لا أراه .

ضاع كما نؤمن في لحظة ما بالسراب وحين نقترب منه لا نجده . ومازال الآخرون يسمون ما يعيشون حياة ،يطلقون الأسهم النارية احتفالا بظلال الغربان التي يسمونها عصافير ملونة .

شربت أم فرح فنجان قهوتها مع إيبولا صامتة ثم خرجت .

حامت طويلا حول بيت سارة وعارف وهي تتأمل كل حجر فيه ، ثم عادت إلى منزلها لتنشر غسيلها بتثاقل وعيناها تسرحان في سماء منفتحة لا حدود لها.

***

حياة المتفتحة كراقصة فلامنكو ، المنسابة مع نفسها كفراشة تستعرض ألوانها أمام العيون مختالة، متراخية ، منسجمة ، ضاحكة ، متصالحة مع الآخرين ، لا تستطيع أن تعيد الصورة إلى مكانها

فوق مجموعة التلفزيون ، كي تصبح مرئية، لأنها لا تريد أن تستعيد لحظات مؤلمة ومحببة في الوقت نفسه ، صورة الخال الذي يكبرها بسنوات قليلة، ويحبها حتى انطفاء الشمس ، كما قال لها يوما ، وقبل يديها ألا تخبر أمها كي لا يسقط أمام العائلة التي تحترمه ولا تتوقع منه أن يقترف تجاوزا بهذا الحجم ، لكنه أحب ابنة أخته حياة ، ضاع في ردهات عذابات الضمير وصراعات الحب الذي لم يكن قادرا على مقاومته ، أحست حياة بأن قبله لها لم تكن قبل محبة عادية ولا لمسات يديه ، أحست بحرارتها المختلفة ، ولم يكن خالها عصام يتراجع أمام دهشة عينيها ، بل أمعن في إحدى الليالي واعترف لها بحبه .

كانت تقاوم بيديها عنف جسده الذي لم يتراجع أمام نداءات الرجاء ، محموما بنار حب وشهوة ، معلقا من حنجرته بصنارة يحاول أن يخلص نفسه منها بأن يدخل فيها ويقبل صدرها وساقيها .

كان يتقاطر عرقا ويلهث ، وجهه أحمر بلون النبيذ، وحين انتهى بكى بتضرع أمام قدميها ثم خرج، وشرد في القرى والمدن القريبة ، لا يعرف عنه أحد شيئا، أحدهم رآه يبيع الحليب في قرية مجاورة، وآخرون رأوه في بيروت يبيع المشروبات الغازية المثلجة، وأقرباء يخدمون في الجيش قالوا

إنهم سمعوا عن جثة مجهولة تحمل هويته وجدت قرب النهر، وبقي سره مفتوحا لا يعرف أهله هل يبكونه أم يلعنونه .

قلبت حياة صورته وانهارت تبكي ، ثم صبت قليلا من البيرة مع الليمون وبدأت تشرب حتى آخر النهار.

- هذا هو بيت صاحب الرواية . تصرخ امرأة مشيرة بيدها إلى نافذة بيت إيبولا .

يداهم البيت مسلحون بينما ينتظرهم الآخرون في سيارات صفت على طرف الرصيف ، فلا يجدون أحدا في الداخل ، يدهش الناس حين لا يرون إيبولا معهم ، لأنهم رأوه عبر النافذة منذ دقائق يتحرك في غرفته ، قالت أم فرح :

- هذا غير معقول . وأضافت أم عباس :

- هذا ليس بشرا إنه سحر . وعلقت فاطمة على المشهد:

- لعله قفز من مخرج ما من خلف بيته .

لا أحد يعرف كيف خرج الرجال دون إيبولا رغم أنهم واثقون أنه كان في غرفته في الداخل .

وتهمس حياة في أذن أبي باسم :

- لماذا أتوا إليه ؟ ما الذي يريدونه منه ، منذ زمن وأنا أقول إن وراء هذا الشاب لغزا أو مشكلة .

ويهبط صمت ثقيل على أطراف الشارع بعد أن يمضي الرجال المسلحون ، وتتراجع الشمس بأشعة برتقالية خافتة لتستقر حانية خلف منزل سارة .
شمالا يطير السنونو ، وإلى جهات مجهولة تنتشر أسراب عصافير يعلو صوتها ويخفت ، ويهب نسيم خفيف تميل له أغصان المساكب الصغيرة على شرفة بيت سارة ، وتتساقط زهرات الياسمين البيضاء المتدلية من الحدائق المنزلية على طرفي الشارع فوق حجر الأرصفة الجاف .
قالوا إن جناحين ضخمين امتدا فوق غرفة إيبولا وظهر رأس طير ضخم كان يحمله من تحت إبطيه من خلف المبنى الذي يقطن فيه في الطابق الثاني .

هكذا روت امرأة أرمنية تعيش بمفردها في حي السيوف، وبكلمات مكسرة كانت تشير بيدها بما يدل على أن ما رأته كان شيئا لا يصدق ، رهيبا، ومدهشا .

***

روائح سوق العطارين تشعل ذكرى لا يمكن معرفة كنهها ، والطيور تحوم فوق مئذنة الجامع الكبير ، يرتفع صوت الآذان ليتواصل مع السماء ، وتنتشر فجأة رائحة ممزوجة بالبخور والبابونج والفلفل ومركبات حمضية أخرى.

يمشي علي في الشوارع الضيقة لسوق المدينة متجها إلى المسجد ، تدفعه رغبة عارمة للتواصل مع ملائكة تمنحه الهدوء ، وتدخل سكينة قارة إلى قلبه ، يكمل صلاته ويتناول القرآن ليقرأ بصمت بعض الآيات ، وهو يبكي بهدوء ، يغادر بعدها المسجد بعد أن يغسل وجهه بالماء المتدفق من نافورة في منتصف الساحة . ويتجه إلى الأسواق ثم يصل إلى سوق العطارين ، تملأ الرائحة ذاكرته بخيالات كثيرة ، يتذكر أمه التي كانت تحضره معها وهو صغير لتشتري شراب التوت الذي يعالج السعال الديكي ، وتحرض الروائح ذكرى الحارة

القديمة التي أحب فيها لأول مرة وهو لا يتجاوز الثامنة من العمر ، يتذكر برائحة زيت القرنفل ألم الأسنان ، وبرائحة الفلفل والكمون وبعض الزيوت العطرية الأخرى ، مساجد ما زالت ترتفع أحجارها – رغم الحفر التي ملأتها والسواد الذي غطى سطحها ، يتذكر الشيخ الذي كان يعلمه مع رفاقه الصغار تلاوة القرآن، ثم يمضي إلى غرفته ليأكل ما ترسله له النسوة من البيوت المجاورة ، يتذكر جلوسه قرب كتب ضخمة صفراء غامضة عليه ، في عمر كان فيه لا يتجاوز الرابعة عشرة سنة ، يبحر فيه الشيخ لساعات في جلبابه الأبيض ، وهو يداعب لحيته البيضاء ، الغزالي ، تاريخ الطبري – السيرة الحلبية – ابن رشد والفارابي ، لم يكن آنذاك يدرك جوهر هذه الكتب ، ويعود ليقف قرب جدار مسجد نمت فيه شجرة سرو كبيرة وصفصافة تميلان للهواء الناعم، بينما كان يغسل أرض فسحة المسجد رجل في سن الأربعين، ينتعل جزمة بلاستيكية سوداء بصمت .

يراقب أعشاش العصافير في جحور داخل جدران المسجد، وحين يسجد يشم رائحة السجاد القديم الممزوجة بعفونة رطبة من أقدام المصلين ورائحة العطور المأخوذة من روح عيدان البخور .

يتوقف ليستعيد جزءا صغيرا من ذكرى طفولته ، يشرب شرابا ملونا أحمر ممزوجا بثلج مبشور، من عربة صغيرة في زاوية الشارع القديم ، ويحدق طويلا في الإعلانات الطرقية التي استبدلت بها الشعارات الوطنية للمرحلة الماضية ، خطوط الهواتف المحمولة، مغنيات فاتنات ، معاجين أسنان، سيارات حديثة ، يشتري بعض الأعشاب الممزوجة من الزهور والبابونج ويتجه إلى المنزل .

سطوح المدينة تكسوها صحون لاقطة لقنوات فضائية لا حصر لها ، بينما كانت في عهد سابق مملوءة بحبال الغسيل، وصواني مربى المشمش والكرز ورب البندورة التي تجفف تحت الشمس.

لاحظ ذلك ، في طريقه وانتبه في الحي القديم إلى بقايا الحمام ذي الألوان المختلفة ، كان أصحاب الحمام قلة لا يتجاوزون ثلاثة يقفون على أسطح المنازل ، يحملون العصي الخشبية الطويلة التي علقت في رأسها خرق بيضاء أو سوداء لإرشاد الحمام .

مر في طريقه بالحديقة ليرى النهر القديم جافا آسنا يعلوه الذباب وتملؤه مياه المجار ير ، وتصدر عنه رائحة نتنة .

عالم يتقلب ككرة حديدية ملتهبة ، لا تؤمه العصافير إلا في أوقات نادرة ، وأشجار قديمة

توقف حفيف أوراقها ، تترامى حولها أكياس أوساخ تتطاير مع الريح ، رائحة الهواء تغيرت ، أصبحت محملة بغبار كثيف ، ونساء محجبات يغطين وجوههن ويظهرن عيونهن فقط ، يمشين بتحفظ في الشوارع .

أحس علي بضياع يلف المدينة ، ومظاهر متضاربة، اقترب من شجرة ولمس لحاءها الجاف ، فحضره شيوخ مسنون حاموا فوق رأسه ، منخطفين، تائهين ، بوجوه صفراء يبحثون عن طرقاتهم الماضية التي منها دخلوا عوالمهم الصوفية ثم أضاعوا طريق الخروج ، وأضاعوا أرواحهم أيضا.

دخل البيت وتناول كأسا من العرق،بدأ يشرب حتى طلع الفجر ، ثم نام عميقا بعد أن خلف على خديه دموعا تشف عن ألم عميق ، صامت ، رصين، وضياع يشبه حدود أفق المدينة التي تغيب في غروبها ـ وتشرد مع الريح في شروقها الذي لا يعد سوى بالسراب .

دخلت النجوم دروبا منحرفة عن مسارها اليومي في كل ليلة ، كانت تلتف حول بيت إيبولا كقوس وحول بيت سارة كوردة ، وبين القوس والوردة مشت ميس مترددة لتصعد الأدراج وتقرع باب إيبولا ، الحبيب الذي لا تطاله الأيدي ، خفق قلبها

وتوقفت لبرهة ، ثم تابعت صعودها إلى باب غرفته الوحيدة التي يجاورها حمام وتواليت ضيق مع مساحة يمكن استخدامها كمطبخ.

"قلت لك الا تصعدي اليه...هو غريب ولانعرف عنه شيئا"

تقول فرح.-انت مخطئة .صعدتُ ...كان اقرب الى روح شفافة،فتح الباب: اهلا،ادخلي.

- كنت خجلةومتوترة.دخلت غرفته.
- تبدين مرتبكة،طبيعي...تفضلي.
- عاينت زوايا الغرفة والاشياء المتناثرة فيها،كانت اقرب الى الفوضى...زجاجات خمر،كتب كثيرة،لوحات فنية،مسجل قديم،وأريكة غير مرتبة،فوضى عارمة زادت من شدة الارتباك في رأسي,لكنها بعد فترة قصيرة،تثير الراحة والاحساس
- بالدفء...لاأعرف السبب.حدثت نفسي.
- انتِ تدخلين عالما بعيدا عن عالمك،غير مألوف حتى لبقية الناس...جاءني صوته...هل تدخنين؟
- لا.
- ما رأيك بشرب البيرة؟
- لم أجربها لكن لا أمانع بشرب كأس.رد:انتٍ فتاة جريئة.

- وربما فضولية.قالتها مداعبة.ابتسم بسمة رقيقة وصب البيرة في كأسين.
- أسمع صوتا يهمس وهو يدير ظهره لي"سارة تصب الخمر في الجراروعارف يجلس قرب حافة من جنة وجنون"أعرف انه هو،لكني لم أفهم ما قصده.ازددت شعورا بالغرابة،لاشيء في الكلام يقود الى شيء.قلت:

- من تكون؟...
- لست سوى رجل عادي ،كباقي الناس،لكنهم يريدون رسم الخرافات وتحميل ما يرون غرابة واسطورة لا تصدق،لأن الاسطورة والخيال،والمجاز يحكم حياتهم دائما،حتى لو لمسوا ما يرون وتأكدوا أنه من لحم ودم،ولانهم مولودون ليعيشواسرابات وخيالات وحكايات وهم وأساطير،يحولون ما يرون ويعيشون الى أشياء خارج عالمهم،وخارج تفاصيل حياتهم الاعتيادية،لانهم يملؤون فراغات ارواحهمبالاشياء الغامضة والمسلية احيانا.وأنا جئتكي أنشر حقيقتهم والخديعة الكبرى التى لفت حياتهم،وهم راضون،سيحلمون كثيرا في قض الغاز

وجودي،ولكنهم لن يستطيعوا،لأنهم عاجزون اصلا عن مواجهة الزمن الذي يعيشون،

- وحدهم من هم خارج لعبهم، يدخلون عالمي ببساطة كي يدركوا أنني جزء بسيط منهم.

تساءلت ميس باستغراب :

- لم أفهم ما تقول بدقة ، ماذا تحمل من حقائق، وما هي كذباتهم ؟

أتقصد أنك جئت تعرف أشياء مكتومة وتريد نشرها كفضائح عن كل من كانوا جزءا من القصص المطموسة؟...

- لا ، سأبقى اللغز الذي يحيرهم إلى أن يكتشفوا دمارا أكبر جديرا بدمار صنعوه ، كي يسوي ما حصل هنا، أثير فوضى في أدمغتهم وحياتهم ، وأزرع القلق والترقب في نفوسهم ، وأبقى مستغلقا على الحل ، حتى يمتلكوا القدرة على كشف ما نسوه وتابعوا مسار حياتهم غير مبالين.

- أتقصد قصة سارة وعارف .

- ليس فقط ، بل هي جزء يسير من روايتي ، خيوطها متشابكة ، ربما تضيف لعالمك وعالم صديقتك شيئا ، هل اسمها فرح ؟!

- نعم . تابع:

- وكل المهتمين الذين يدركون ضرورة كشف الخبايا، أضيف شروحات توضح الغموض

المتربص في زوايا حيكم ، وزوايا العقول الحائرة ، وكي تتناسل الرواية ، يجب أن أودعها في أيدي المتشوقين لقراءة سطورها ، في روايتي ليس ثمة فصل بين جوهرها والعارض فيها ، إنها تحكي القصة الكبيرة ، قصة الكتمان والخوف ، لكي ننادي عصافيرنا فنقول عودي فتعود، إلى أشجار زرعناها نحن ، وسقيناها وسهرنا تحت ظلالها.

للدنيا طعم آخر ، إذا لم نعثر عليه ، نمر فيها عابرين كريح خريفية تتكرر بلا معنى ، ولا تخلف وراءها شيئا .

- ما زلت تقول أشياء غامضة ، لم توضح لي من أنت ، وماذا تريد ؟.

- الوضوح السريع قتل لوعيك ، إذا فكرت قليلا ، سيتضح لك كل شيء ، هل تشربين البيرة ؟.

- لم أشربها من قبل لكن يمكن أن أجربها .

- ماذا تنوين أن تفعلي في حياتك ؟.

- أدرس البكالوريا ، وسأحاول دخول الجامعة .

- إذا درست علم خيمياء الناس ، ستدركين حقيقة الرواية ، وحقيقة الكون ، أنت الآن صغيرة قليلا، وأمامك طريق مفتوحة وطويلة ، حاولي أن تكون ذات معنى .

السحر والشعوذة ، والكذب ، والمسارح البشرية، والقتل ، والغدر ، واللصوصية الممزوجة بالأحلام

والشعر ، والكلام ذو الأوجه الكثيرة ، الغامض والمفهوم في الوقت ذاته ، الطبيعة والأفق والشمس ، وجداول الأنهار ، كلها عناصر من الحكاية ، ينبغي أن ترصف في مواقعها كي نعيش توازنا ممكنا على الأرض .

من يعيش شتاءه ليس أبدا مشابها لذاك الذي يعيش ربيعا، ومن يقتلك من الخلف ليس مثل من يقتلك في مبارزة نبيلة وجها لوجه . هذه طريقتي في فهم الدنيا .

- ما زلت تمعن في الغموض ، لا أدري ما تريد .

- صحيح – لكنك ستدركين ذلك قريبا ، لأنه واضح وقريب منك ، تمنعه عنك الحياة البديلة التي تنغمسين فيها وتنسين الأشياء الحقيقية .

- كأنني أتلقى درس فلسفة .

- لا ، لا أستطيع الإيضاح أكثر ، لكن ثقي أنك ستدركين قبل أي شخص آخر ، سأبقى هنا، الهاجس المؤرق لهم ، أصنع من حضوري قلقلا يستوقفهم من وقت لآخر ، ويقطع عليهم ما يستمرون به كحياة عادية لا يفكرون بما يدور تحت قشرتها .

أكره المغفلين، مثلما أكره من يخونون الحياة .

ازدادت ميس، وهي تتابع إيبولا بإعجاب ، ارتباكا وحيرة، تأملته بما يكفي كي يشعل فيها أحلاما كثيرة، كبر فيها دافع لمزيد من التشبث بهذا الكائن

الرصين العجيب، قررت فجأة أن تنهض وتغادر، استأذنت بالرحيل وخرجت هابطة الأدراج بتثاقل وهي ساهمة تستعيد ما سمعته منه .

***

لم يدر أهل الحي أن ميس وحدها ، جلست وتحادثت مع إيبولا الغامض ، وسمعت آراءه الغامضة، وسمعت صوته وشاهدت نظراته الواثقة والحائرة في الكون ، وحدها فرح عرفت وفاجأتها شجاعة ميس .

لكن ما تكلمه إيبولا أو ربما جزءاً منه بدأ يتفتح ويتفتح قليلا بصورة واهية في ذهنها ، حين بدأت تقارنه بما تراه وتعيشه في الحي .

قالت في نفسها :

- من يدري لعله أسهل مما توقعت ، لعله يحكي عن سارة وزوجها وعن أشياء أخرى لا نراها أنا وفرح!...

فرح الجميلة، ذات الجسد الذي يضج بالأنوثة والتشكيلات المثيرة ، كانت محط متابعة من أبي عباس ، ولم يبد على أم عباس أية ردة فعل من تحديقات زوجها بفرح، كانت نظراتها تشي بتآمر خبيث .

لم تبالي فرح لنظرات أبي عباس ، الذي كان مقصرا مع زوجته في واجبه الزوجي الليلي ، لكنه كان يؤديه في فترات متباعدة كلما ذهب مع أصدقائه إلى مزرعة خيل بعيدة ليشاهد عملية مزاوجة بين حصان ومهرة . فكان يهتاج ويأتي زوجته ليلا لمرة واحدة .

نادت أم عباس على فرح وهي تمر أمام باب بيتهما، داعبت شعرها ، وسألتها عن أمها ثم شدتها من يدها مصرة على دخولها لتتذوق ما صنعته من مربى الكباد الذي كانت فرح تحبه .

دخلت فرح ، ولم تلحظ وجود أبي عباس في البيت للوهلة الأولى !

قدمت لها أم عباس طبقا صغيرا من مربى الكباد الذي تفوح منه رائحة النارنج ، بدا على فرح الارتباك والخجل ثم طلبت منها أن تأتي معها لتريها معالم
البيت والغرف فيه ، بدت نظرات المرأة توحي بخبث متآمر ، لكن فرح لم تنبه لذلك ، وحين كانتا تتبادلان الحديث ، ظهر أبو عباس فجأة عائدا من مزرعة الخيل ، لاحظت فرح معالم غير طبيعية على وجهه ، وفاجأتها أم عباس بأن دفعتها إلى الفراش وأمسكت بيديها ، وانقض أبو عباس ليثبت قدمي فرح التي كانت تضرب برجليها في الهواء ،

خلع أبو عباس بنطال فرح ثم سروالها وولج فيها بوحشية مجنونة .

اهتاجت أم عباس للمشهد ، طلبت منه أن يستمر وأن يفعل المزيد ، بينما كان يعري صدر فرح الناهض ويعضه ، حاولت زوجته أن تكم فمها بيديها وهي تقاوم .

بعد أن انتهى الأمر كان باب الغرفة مقفلا ولم تستطع فرح التي انهارت بالبكاء أن تخرج ، سمعت أم عباس تخاطب زوجها :

- ستكون ليلتي جميلة معك اليوم فأنت كالحصان .

سال دم على ساقي فرح وغطى الشراشف المبسوطة على السرير .

لم تدري فرح ماذا تتصرف ، بدأت تزداد بكاء وتلعنهما، بينما حاولت أم عباس أن تهدئها كي لا يسمع صوتها في الخارج .

وهددها أبو عباس أن مصيرها لن يكون معروفا كمصير سارة وزوجها إذا أباحت بالسر لأحد .

خرجت فرح تمشي كطفلة أصابها الخبل ، والزوجان يراقبانها ، حتى دخلت منزلها ، مدارية وجهها عن نظرات أمها التي كانت منشغلة في الغرفة، غسلت وجهها ودخلت الحمام ، أقفلت عليها الباب وفتحت الدوش على آخره وهي تبكي بصوت مكتوم .

أخرجت أم عباس صدرها المتدلي كضرع كلبه أمام أبي عباس ، وبدأت تتعرى ، طلبت منه أن يقترب فاقترب مجاملا، نزعت سروالها وفتحت ساقيها، لم تبد عن أبي عباس أية مبادرة، أمسكت قضيبه بيدها ووضعته في الكهف أعلى ساقيها، لكنه بقي باردا دون مبادرة، حاولت مرارا ، وهي تلهث ، ورغم أن أبا عباس طرح بجسده فوقها ، لم يستطع أن يفعل شيئا، مع أنه حاول جاهدا، ضربته أم عباس على صدره وصرخت :

- انهض أيها العنين الساقط .

لم تتم فرح في ليلة الحادث ، لم تدري لمن تبوح بما حدث، ورفضت في نفسها أن تقول حتى لميس ، التي سألت عنها ، لكنها لم تخرج لمقابلتها .

ظلت تبكي طوال الليل ، كالمجنونة ، مرتبكة خائفة ، حتى بدأت العصافير بالتغريد على الأشجار في الخارج ودخلت أشعة الشمس من أطراف النافذة لتسقط على قدميها اللتين كانتا ترتجفان كمن أصابه نوبة ملاريا أو حمى .

***

وحده الجنين الذي تحمله فرح في بطنها استطاع أن يجعلني أفهم ما كان يعنيه إيبولا بكلامه الذي

تحدثه معي في غرفته ، فرح الصغيرة تختزل الحكاية ، والشارع بكامله لا يقوى على اتهام أبي عباس وزوجته ، كنت مغفلة عندما لم أفهم ما يقصده كلام إيبولا ، الموجوع دائما بصمت ، ووحدها الدنيا مليئة بالرعب كما يملأ الفزع والرعب فرح التي تلمس بطنها بفزع شديد وخوف ، يا رب ، ماذا نفعل ؟!! أين تذهب فرح كي تداري ما حدث .؟

ويمر أبو عباس مختالا ، وكأن شيئا لم يحدث ، من أمام دكان أبي باسم ، كم أود أن أطعنه بسكين وأمثل بجثته !...

حبيبتي فرح ، تقول ميس .

***

مظاهر الحصار بدأت ، صرنا نقف على أبواب المؤسسات ساعات طويلة ، أحيانا منذ الفجر ، كي نشتري علبة سمن نباتي أو أوراق تواليت ومحارم ورقية .

بينما ينزل أقرباؤنا من دول الخليج محملين بالبضائع التي لا نحلم أن نراها يوما ، يعيشون حالة من الترف لا نتوقعها .

بدأت المياه والكهرباء تقطع لساعات طويلة كل نهار، ولا ندري السبب الحقيقي لها .

شحت الحاجات الرئيسية اللازمة لحياتنا ، وصارت فرحتنا الكبرى أن نؤمن قليلا من التفاح الرديء أو علب المحارم أو مواد تموينية أخرى .

وتآخينا مع أضواء الشموع ومع عمليات تخزين المياه في الصباح كي تسد احتياجاتنا في المساء.

الظلمة سادت المساءات ، والغبار ملأ الشوارع ، جفاف يلف المنازل والوجوه حين تكون المياه مقطوعة عن الصنابير .

الشمس وحدها نقطة الضوء الوحيدة التي تعزينا ، ومياه البحر وحدها تشعرنا بسخاء البحر ، وتقهر

الجفاف الذي أصاب أرواحنا . تقول أم حسان لحياة مذكرة إياها بالأيام الماضية ، وتضيف:

- لكنني لا أشعر أن هذه الأيام ستكون أفضل، ثمة أشياء تنقصنا ، عادت المياه وخسرنا البحر وعادت الكهرباء وخسرنا الشمس .

هكذا أحس دائما ولهذا أحس بروحي محاصرة ، ولا أقوى على كسر الطوق الحديدي كي أطلق نفسي لروح البراري .

تنهار أم فرح عندما تدخل منزل علي ، وجدته معلقا رقبته بحبل في منتصف الغرفة ، حيث يوجد في السقف قوس حديدي صغير ربط فيه حبلا وانتحر شنقا .

تتوافد نساء الحي على صراخها وتدخل فرح بتثاقل مصابة بفجيعة أخرى .

يحاول بعض الرجال إنزاله من على الحبل ويضعونه على السرير ، وجهه أصفر مزرق ، يطلقون عبارات أسى وأسف .

تراقب فرح أمها وهي جالسة على طرف الأريكة تبكي، وتتعاظم رغبة كبيرة في البكاء داخل فرح التي تخبئ في نفسها جرحا لا تستطيع البوح به ، ويحتل فيها مكانا لا يدع مجالا لأحزان مؤسفة أخرى تأخذ حيزا في روحها المدمرة ، تفتح ورقة

بيضاء لاحظت وجودها على الطاولة بينما كان الرجال والنساء مشغولين بتدبير أمر المصيبة .

تفتحها وتقرأ فيها ما كتب علي :

" كنت أتوق أن أخرج من عالم العزلة المخيف في ذلك المكان البعيد بين الجدران والقضبان ، اشتقت فيه إلى رؤية أمي وإخوتي ورؤية الناس ، كل شيء بدا أكثر جاذبية وجمالا في الخارج ، لكنني الآن أفضل لو أني بقيت هناك ولم أخرج ، كي لا أرى الفاجعة الكبيرة ، كل شيء كان مختلفا ، تغير كل شيء ، وما كان يشكل حلما لنا أصبح لا يعدو مجرد ترهات .

ما آمنت به أصبح ذكرى ، وأصحاب الأفكار الكبيرة بدؤوا مشاريع استثمارات تعكس ما كنا مخدوعين به ولم ندرك ، شركات تجارة واستيراد، مطاعم فاخرة للطبقات الرفيعة والسياح الأجانب ، أصحاب الدفاع عن الخبز أصبحوا تجار بيتزا وسيارات فخمة ، انكسر قوس الدائرة أكثر واتسع ، وتحولت أموال الملاهي الليلية إلى صالات تجارة للسيارات الحديثة ، دخل ما يسمونه حداثة دائرة النقاش ، وصارت قناعات الأصدقاء لا تنفك تدور في فلك الاهتمامات الشخصية ، وقطار ما كنا نسميه إيديولوجيا صار مفاهيم جديدة لما بعد الحداثة ، حتى المدارس الدينية القديمة ، والقلعة والشوارع

المرصوفة بالحجر العتيق والشوارع الضيقة التي أمضينا طفولتنا فيها صارت خرابا وهجرتها عصافيرها وخضرة أشجارها ، خرجت فوجدت نفسي على هامش ما يدور في المدينة ، ضاع تراث الحوارات الطويلة ، وأصبحت طوابير الناس التي أدمنت الاستلاب ، تصطف لشراء بطاقات لحضور حفلات لمغنيات جميلات شابات ، يتراقصن على المسارح حيث كنا نقيم مسرحيات نساهم فيها بالحد الأدنى لتخفيف الوطأة عن جيلنا ، والحفاظ على حساسيته عالية متيقظة ، لم أستطع تحمل ما يجري الآن، علي أن أكمل قوس الدائرة على الأقل بألا أكون واحدا من أطراف اللعبة ، غالبا أو مغلوبا، وداعا أيها الأصدقاء ، وداعا إخوتي ، ينبغي أن تنتهي هذه الرحلة هنا ."

ويهمس أبو باسم بصوت خفيض : المسكين كانت ظروفه صعبة في السجن وبعد أن خرج ، ورد أبو عباس :

كان يعاني من الكآبة . ولم يتبادر إلى ذهن أحد الجرح الكبير الذي كان يعيشه علي ، وحدها فرح التي قرأت الرسالة ، فهمت بعضا منها رغم صغر سنها .

حضر الجنازة أصدقاؤه الذين قرروا بعد فترة من السجالات الفارغة ، أن يكملوا المشوار بطريقة

مدنية. تأسفوا لما فعل ومضوا كالغرباء خلف الخط الأخير لشارع الحي حيث كانت تهب نسمات خفيفة، تضرب دموع أخوته الذين كانوا يسيرون منكسرين كأعواد يابسة ، هبت رياح تحمل غبارا كثيفا حول القمر إلى قرص فضي واه يكاد لا يرى، واضطرت نساء حي السيوف وأبو عباس الذي يعاني من نوبات الربو أن يلازم البيت ، ذبلت الزهور وأوراق النباتات الخضراء على شرفة سارة أياما عديدة ، حاول جميع الجيران أن يرشوا مزيدا من المياه على الأرصفة والشوارع لتخفيف التراب وحالة الجفاف القاتلة بلا جدوى ، إذ كانت الريح الغبارية تهب بعد دقائق من رشهم للمياه ، حاولت ميس أن تتسلق الجدار الذي يوصلها إلى شرفة عارف وسارة لتسقي النباتات ، لكنها لم تستطع بعد أن وصلت إليها وسقتها بالماء من إحيائها ومنع الذبول من الزحف إلى أغصانها وورودها ، لاحظت ميس أعراض التعب على فرح ، سألتها إذا كانت مريضة أو تعاني من شيء ما في صحتها . أجابت فرح أن هذا شيء عارض ، وقبل أن تنهي كلامها تقيأت، ساعدتها ميس على الدخول إلى غرفتها في البيت وحضرت لها قليلا من النعناع المغلي ، وقبل أن تتناول فرح كأس النعناع انفجرت في البكاء،كانت ميس تنظر إليها باستغراب ودهشة ، سألتها :

- ما الأمر ، هل تعانين من شيء ، هل حدث لك مكروه ؟...

وجدت فرح المذعورة والغاضبة الشجاعة فقصت على ميس ما فعله أبو عباس وزوجته . جمد الخبر التعابير على وجه ميس كأنها لا تصدق ما تقوله فرح .

أي دنيا هي هذه ، ولمن يكون هذا الجنين الذي تحمله فرح ، أهو جزء من الرواية يختزل ما يحصل في عالمنا ؟ تساءلت ميس على فراشها في الليل ، هل سنستطيع تخليص فرح منه ، يا إلهي ، كيف أفسر ما أسمع وأرى ؟ الأذى يطال فرح الصغيرة ؟!... تسأل نفسها وحيدة .

***

على مرأى من الشمس ، وعيون النساء اللواتي يدخلن ويخرجن إلى ممرات المباني الصغيرة وعلى مرأى من الظل الغامر لشرفة سارة التي عادت لنباتاتها الحياة ثانية ، وعيون ميس ، كان إيبولا يتنقل في أرجاء المنزل ينشر بعض الملابس ، ويسقي أصيصي الورود على طرفي النافذة ، ويتلو بعض أشعار قصيرة بصوت شبه مسموع ، يصعد درج السطح يزرعه جيئة وذهابا ، كأن إيبولا حاضرا أكثر من حضور كل الأشياء التي تتحرك

في حي السيوف ، وأكثر تأكيدا على حضور الخفاء فيه ، كشبح يرى ولا يلمس ، وتأكيدا لحضور الأشياء رغم غيابها ، داهمت ثلاث سيارات بيضاء الشارع وصعد منها خمسة رجال أعلى درج بيته ، قلبوا كل شيء في الغرفة ، وكسروا بعض الكؤوس وقلبوا الفراش وأنزلوا اللوحات ، وبعد أن يئسوا من العثور على إيبولا أو أشياء مهمة لديه ، نزلوا الدرج وركبوا سياراتهم ورحلوا .

تساءل الجميع كيف لم يعثروا عليه ، رغم أنهم شاهدوه بأعينهم طوال النهار ، وكأنه كان يظهر تحديا للجميع ، وتأكيداً على أسطورة حضوره ، وغيابه في الوقت ذاته ، قدرة مجهولة على الغياب رغم مشاهدة العين .

" أين ذهب ؟ من أين هرب منهم ؟! يتساءل الجميع وهم ينظرون إلى نافذته باندهاش . غرفته لا منفذ خروج منها سوى الدرج ، الوحيد ، كيف اختفى ؟! ولا يجد المتسائلون جوابا يوقف دهشتهم".

- يظهر إيبولا في الليلة التالية وهو يسقي وروده بأعصاب هادئة ، بينما تراقبه ميس بعيون حائرة.

- " وحدك تعرف السر ، إيبولا " تقول ميس في سرها .

- تختفي فرح عن المنزل وتمضي إلى منزل عمتها التي تعيش في حارة صغيرة مرتفعة عن مستوى الشارع ، كان أصحاب بيوتها قد استأجروها من البلدية بمبالغ رمزية ، كان جميع سكان الحي الدائري الصغير الذي تكثر فيه الحجارة الكلسية، فقراء يعيشون حياة تحت خطر الفقر بكثير ، تتوسط دائرة البيوت الصغيرة الملتفة حول ساحة ترابية ، شجرة توت كبيرة ، ويقال إن هذه البيوت مبنية فوق جزء من مقبرة يمتد الجزء الآخر ظاهرا خلف البيوت ، هناك أقامت فرح سرا وطلبت من عمتها ألا تبوح بسرها لأحد .

كانت الفئران تمشي فوق جسدها ليلا وهي تنام في فراش ممدود على الأرض ، ويتبادل الناس نهارا ما يستطيعون تدبره من طعام فيما بينهم .

ذهبت سرا مع عمتها إلى قابلات يعملن في التوليد والإجهاض دون ترخيص حكومي ، زارت عدة قابلات اعتاد الناس أن يحضروهن إلى المنازل في حالات الولادات ، أعطينها وصفات كثيرة اشترتها من شارع ضيق قريبا من الحي الصغير ، يبيعها عطار شيخ ذو لحية بيضاء ، لكن لم تجد الوصفات نفعا ، حاولت القفز من مسافات عالية ، وضربت بطنها في سورات غضب بعنف ، لكنها رغم النزيف الذي أصابها لأيام ، لم تستطع التخلص من

حملها ، جلست العمة حائرة حزينة تدعو الله أن يدفع عنها الأذى .

زوج عمتها عجوز مسن ، في الخامسة والسبعين ، يلبس سروالا أبيض قديما ويبيع القهوة المرة في دوائر الدولة الرسمية ، مقابل بعض القروش ، لحيته بيضاء ، يصلي في قبو صغير في البيت، ثم يجلس في أوقات العصر عند مغيب الشمس صامتا متأملا ، كأنما تخطفه ملائكة لا ترى ، إلى أعالي السماء، يحضر أطفال الحي ليطعمهم من الحلاوة الطحينية التي يشتريها بالنقود التي خبأها في يوم عمل كامل . ويلح عليها بالجلوس على الطعام لتشاركهم قوتهم ، وفي نومه مساء كان يصارع الفئران ويحرك أقدامه كأنه يدفع عن بيته عمالقة أقوياء يقتحمون المنزل ، ولا يذكر صباحا ما كان يحصل له خلال نومه .

يتأمل كل مساء شجرة التوت ، ويتأمل الجدران المثقبة في باحة البيت وتنهمر دموعه ، سألت فرح عمتها لماذا كان يبكي ، فأجابتها :

- إنه يتذكر سني شبابه حين حارب الفرنسيين، كان قويا مفتول العضلات يعمل حمالا، وهو الآن يبكي أيامه الغابرة . وتضيف: هذا العجوز مولع بالحجر القديم، يتحادث معه ساعات طويلة، كأن

بينهما قصة قديمة وتاريخ غامض. تصوري الحجر يبكيه !.

يرش العجوز أبو محمود ساحة الدار بالماء ، ويبسط البسط الرقيقة على الأرض ويسرح في دنيا يخيل لفرح أنها نائية تبعد كثيرا عن الدنيا التي تعيش فيها .

يشتري الحليب في الصباح ، ويخاطب العصافير فترة طويلة ، تصرخ به عمتي فلا يجيبها ، وفي الليل كان يجلس على السطح ليخاطب النجوم التي تنهار أمام تلاواته الغامضة، تقول عمتي إنه كان يبيع خبز الذرة الذي تخبزه له أمه للأرمن الهاربين من المذبحة التركية .

كان أبو محمود يتفقد فرح في الليل أثناء نومها ، كي يتأكد من أنها مغطاة جيدا ويمضي ليكمل صلواته .

***

يتراءى لفرح في نومها رجلٌ مسنٌ ، ملفحٌ بالبياض يحملها ويصعد بها إلى السطح ليعرضها على النجوم، وعلى طيور ليلية ملونة ، تنقر شعرها بمناقيرها ، تتراصف حول عينيها أشعة من السماء ، ألوانها لا تحصى ، تلتف حول بطنها وجسدها

المرتجف ، فتدخل الراحة والطمأنينة جسدها ، تحاول أن تلمس الأشعة فتقع يدها ، مخترقة الأشعة، على يد العجوز ، يمسح يديها وجبينها وهو يتلو آيات بصوت خافت ، ويغيب في السماء .

أصاب ميس الضجر من غياب فرح الطويل ، صارت تزورها كل يوم جمعة في بيت عمتها . وظلت في حي السيوف تلاقي طيف إيبولا وسره الغامض كظل لا يشاهد في عالم مليء بالظلال . وظلت النساء هناك يختلقن حكايا تتناسل من خيوط لا نهاية لها ، يضفن ملحقات من وحي خيالهن . مرة تزيد الغرابة ، ومرة تزيد الرعب ، ومرة تزيد الألم .

أم فرح أبدت استغرابها من تصرف ابنتها وتساءلت أمام ميس ، صديقتها المقربة ، عن سر إصرارها على البقاء عند عمتها ، قال :

- لو كان عندي زوج أو لها أخوة ، لأمرتهم أن يذهبوا ويحضروها قسرا ، ألا تقدر أن لها أما وحيدة هنا ، ألا تشتاق إلي ، ثم لماذا تركت مدرستها ، بيت عمتها بعيد عن هنا ، هذه الفتاة مجنونة .

تخفف ميس من انزعاجها بكلمات ملاطفة ، ولا تجيب على أسئلتها الملحة .

ظل الرواية ينتشر في أطراف الحارة ، وفي الزوايا التي يخيم عليها سكون ، يتنقل ككائن حي

من زاوية إلى أخرى كأنه يتوارى عن الأنظار ، أو ينقل الأسرار إلى أحجار الأرصفة الساكنة ، يمد خيوطها في أطراف الشوارع كي يربط الأطراف الفالتة من غرف البيوت المغلقة التي تفوح منها روائح الخيانة والجنس ، وحكايا يهمسها الناس كي لا تسمع ، عن أعمال عسكرية ماضية قامت لإخماد تمرد في مدينة مجاورة ، وأحاديث ساخنة عن اقتراب إعدام رئيس اختلف عليه الرواة والمؤرخون حيث يسميه البعض بالطاغية والآخرون برجل الزمان ورجل التاريخ والضرورة.

استأجرت عائلة رحمة الصبية القادمة من دمار البلد المجاور ، بيتا في حي السيوف ، عائلة من الطبقات المتوسطة، هادئة وصامتة ، الأب في حالة انشغال دائم على خط هاتفه النقال مع أقربائه ليحولوا له بعض المال من أجل العائلة .

رحمة ، تخرج مع أمها باكية حينا ، وهادئة مستكينة بوجهها الوديع المتورد حينا آخر . وجدت ميس صديقة محتملة، تبادلت الحديث مع أم رحمة ودخلت منزلهم، مازحت رحمة الخجولة ، وصارا يخرجان للمشي في أماكن مجاورة للحي .

يفرغ الشارع كأن مباراة كرة قدم هامة تعرض على التلفزيون، لكن هذه المرة ، يتسمر الناس أمام التلفزيونات ليشاهدوا الرئيس المخيف ، يمشي

متماسكا ، ويسقط في حفرة يشده حبل ثخين من رقبته ، يهلل الموجودون في غرفة الإعدام .
ثم يدخل خبر آخر ليقطع المشهد ، المراسل الصحفي يحاول تفادي شظايا القذائف والناس يتطايرون بانفجارات سيارات مفخخة من أطراف مجهولة . تقول رحمة لميس : نحن نسير في طريق مجهول ، لماذا كل هذا الخراب ؟! بلدنا منكوب منذ الأزل .
يمشي جندي من جنود الاحتلال أمام آثار السيارة المفخخة، ويبتسم مدججا بأسلحة وأجهزة اتصال حديثة ونظارات ليلية .
هادئا ، توحي مشيته بالثقة بأن لا خطر يستهدفه .

***

" ذهب الذين نحبهم، لا صوت للأحزان أصرخ...."

تسمع ميس صوتا يتلو شعرا ، الصوت يصدر عن غرفة إيبولا ، تقترب ميس وتتابع النظر والاستماع إلى ما يتلوه . ثم ينساب صوت " إيرينا باباس " وهي تغني الأوديسة .

" سلام عليك وأنت تعدين نار الصباح " يتبدل صوت موسيقى الأوديسة بأغنية مارسيل ، وتسمع ميس بقايا نشيج يصل سمعها بصعوبة .

- " يا إلهي إيبولا يبكي !."

- " عمر الحزن فينا أقدم بكثير من عمر الفرح." تقول ميس . وترد رحمة :

- كأننا كنا وما زلنا المعبر لكل شيء ، معبر الأحزان والحرب ، والقتل والمخدرات، دائما يقف خط العبور إلى باقي بقاع الدنيا عندنا ، وينهال علينا مطر أسود، تهز ميس رأسها موافقة ، عبور الأقدام من القذارات إلى جناتنا ثم إلى ضفاف المجون.

" جئت إلى قرطاجة ... محترقاً محترقا ... يا ربُّ أنت الذي تنتشلني محترقاً ."

يتردد صوت القديس أغوستين من غرفة إيبولا ، يتبادل رجال أبي عباس حوارا طويلا معه ، بالقرب من باب بيته ، تشاهده ميس من مسافة بعيدة وهو يشير بعينيه وحاجبيه إلى منزل حياة ، يناوله الرجال حفنة من الأوراق النقدية، يدسها في جيبه ويودعهم ، يتجه إلى منزل حياة ، يتبادلان حوارا تسمعه ميس من خلف نافذة بيتها . تقول حياة :

- من سيكون الضيوف . كم عددهم ؟!..

- رجلان من أصدقائي ، من المعارف ، أناس لطيفون وحضاريون ، ثم المبلغ عظيم يا سيدة حياة . يتردد صوته خافتا خبيثا .

تدخل حياة مساء إلى منزل أبي عباس ، تحاول رصد من حولها متلفتة ، وجهها أصفر وعلى رقبتها وصدرها آثار جروح وأظافر .

تفتح أم عباس الباب ، وتطلب من حياة الدخول . تسألها حياة :

- هل أبو عباس هنا ؟!

- لا ... خرج لتوه ، لا أدري أين ذهب . هل تريدين منه شيئا ؟

- لا . تنظر أم عباس إلى رقبة وصدر حياة التي يبدو عليها وكأنها نجت من مجزرة ، وتحاول تجاهل ما تراه .

تدفع حياة بالسكين إلى صدر أم عباس وتغرزها عدة مرات ثم تندفع خارج المنزل تتلفت حولها كالمجنونة ، وكأنها أطفأت بعضا من نار في داخلها .

تطأ قدما أبي عباس الدم في ممر البيت حين يفتح الباب ويدخل ، الدم منتشر في كل مكان ، يكاد خيطه الأخير يصل إلى المطبخ ، يصعقه المشهد فيخرج كالوحش المجروح مندفعا في كل الاتجاهات .

تحقق الشرطة في الحادث ، فلا تعثر على دليل ، يشتبه أبو عباس بحياة ، فيحققون معها ولا يصلون إلى نتيجة ، بينما ينظر إليها أبو عباس نظرة تتم عن يقين بأنها قاتلة زوجته .

يتغير الجو في حي السيوف ، ويسوده الحذر والصمت.

يبدأ الصيف بالتراجع خلف الجبال المجاورة ، ويخيم مناخ خريفي تشعر به النساء وهن يخرجن إلى الشرفات لنشر الغسيل ، وتتكاثف أعداد السنونو النشيط الذي يطير كمجنون هارب من خطر يلاحقه .

يميل مزاج الناس للصفرة ، وتتحاشى الشمس النبات على شرفة سارة .

الصفرة تغطي أوراق الأشجار ، وتبقى شرفة سارة وعارف معزولة عن المكان والخريف الذي يخيم على المدينة .

تنزف فرح أياما عديدة بعد زيارة قامت بها مع عمتها للتخلص من جنينها ، حيث بدأت بطنها تتكور وتظهر ، أعطت القابلة فرح أعشابا غلتها وشربتها ، انتابها ألم شديد في رحمها كأنها مطعونة بالرماح ، نزفت عشرة أيام وشحب وجهها ، خرجت ليلا إلى الحمام المظلم في البيت ، أسقطت من بطنها كتلة مدورة ، واستمر نزيفها .

ران الصمت على الشيخ العجوز ، بدا صامتا وحزينا . نهضت العمة من فراشها لتتفقد فرح ، كان جسدها ثقيلا، لم تبدي أية حركة حين حركت يديها وقلبتها ، صرخت العمة صرخة عالية، بينما كان زوجها الشيخ يناديها بعد أن أنهى صلاته .

حين تدرك أم فرح خبر موتها ، ترتمي على الأرض وتفقد وعيها ، تبكي دون انقطاع ، بينما تحاول ميس ، الحاضرة دائما بين الأحياء ، أن تواسيها ، وتهيم في الطرقات وتدخل في آخر ضياعها الجامع الكبير ولا تخرج منه أبدا .

سائحة رشيقة تلف كنزة على خصرها ، تصور القلعة من طرف الرصيف المقابل ، بينما ينزل سائحون آخرون من حافلة بولمان سياحية ويصعدون الدرج العريض العالي . تغطي أشعة الشمس البرتقالية سطوح الجبل العريض الذي تتربع عليه القلعة ، شاهدا على عصور يجهلها الناس من حولها ، ينطلق قوس عريض خلف القلعة كسيف مرصع بألوان قوس قزح ، أطياف لا تحصى ، تقص الفضاء الذي يغلف المكان بهواء له طعم عتيق ، تاريخ من أسرار اختلف الناس عليها والحجر المثقب وحده يصحح أخطاء بوصلة التدوين . تختبئ في كل حفرة فيه قصة صغيرة تحكي عن حراس المساء ، وأزمنة الجوع، والأيام العصيبة التي

انطفأت فيها الشمس فجأة فوق الكتلة الحجرية الهائلة ، حين صمت الجميع عما يجري في الداخل ، للولاة والخادمات ، والنساء المخصصات لتدليك أكتاف الأمير في الحمامات السرية ، وحين يهب نسيم صيفي لطيف تفوح رائحة الشعر الذي كتب في السجون المعتمة فيها . تاريخ ورعب ، وكتب أسفار لا تحصى، كتبت ودفنت هناك في أمكنة مجهولة ، يعرفها المخصيون في القلعة ومرجانة ، الخادمة التي تتناسخ على امتداد البراري التي تصل الأندلس بهامة القلعة العظيمة .

شاهدان ، وحدهما يصححان بوصلة التدوين ، ويوجهان الحمام إلى اتجاهاته الصحيحة كي يعود بالخبر الحقيقي .

ويصل آذان الأطفال نقيا غير ملوث بعربدة التاريخ .

ترتفع في وسط القلعة مئذنة تتواصل بروحها الحجرية مع مئذنة الجامع الكبير بطيور تنقل أرواحا هائمة في المسافة الفاصلة ، لا يعرف سمتها وسر حركتها سوى العميان الجالسين للتلاوات مقابل الباب الجانبي للجامع .

يمر شاب يافع قرب السائحة ، يتوقف محاولا بتردد تركيب جملة قصيرة بالانكليزية ، يحييها ويقول لها:

- لماذا لا تدخلين وتصورين المكان هناك في الأسفل ، اسمه " حبس الدم "؟. المكان الوحيد الذي لا نعرف ولا تعرفين عنه شيئا .

تحول أخبار موت أم عباس وموت فرح حي السيوف إلى كتل حجرية هائمة منقسمة ، يظللها التوجس والحزن ، بينما تبقى ميس ورحمة تتنقلان في المكان ، حاضرتين ، كأنهما تنتظران مجيء أحد، أو خبراً أكيداً قادماً ، تعالجان جراح النباتات بطمي الجداول التي تنساب صباحا على أطراف الحي الخارجية وتختفي مساء تحت الأرض ، وخلف جدران المنازل ، أو تنسكب دفعة واحدة من عيون النساء الحائرات اللواتي خرجت من أرحامهن دمى ، تشهد على موتها فقط.

***

ظل الرواية يلازمني ، لا أنسى ما ينساه الجميع ، وأبحث دائما عن غياب لا يبارح المكان ." هل هناك من يمتلك كل الأجوبة رحمة "؟ تسأل ميس .

لا أدري. تجيب رحمة ثم تغيب في تأملها وهي تسير بجانب ميس .

- الموتى وحدهم يدركون الحكاية. تتحدث ميس مع نفسها .

وحدي شاهدت الخروج العظيم لشاهدة صغيرة مثلي على عصر يتداعى ، نرجسة ليل ، وأقحوانه صباحية صفراء مشعة .

خرجت جنازة فرح ، تابوتها يلفظ الأيدي التي تحمله ، حلقت فوقها حمامتان بيضاوان ، وتكاثف الندى على الأطراف الخشبية للنعش ، وحدي شاهدت الجموع تدخل قوسا هائلا من ألوان الطيف، رأيت أقحوانه تختزل ذكرى عالم فرحٍ كاسمها ، يحملها الناس لتدفن في قبر . ووحديً رأيت كل أنواع النباتات على شرفة عارف وسارة تذبل أمام عيني كفيلم سينمائي .

نحن ، الصغيرتين ، نرفد نهر الحقائق بماء نقي ، ونراسل السماء بلغة خاصة بنا ، لا يفهمها الجميع ، لغة أصابع وعيون عاتبة ، حركات متراقصة لجسدينا اليافعين، وحدها تجعل السماء ترتجف حبا.

يرتفع صوت هامس من نافذة إيبولا ، الحاضر في كل الأمكنة ، والغائب دائما ، الافتراضي كمجهول في معادلة رياضية .

لأجل سارة أقفلت جرار الحب وبكيت، ولها كتبت ظلالا خفية لرواية تنشر الفزع في أمكنة السواد، أفتح صفحاتي كي لا أراها بيضاء يوما ما، وأنشر الريحان في كل الأمكنة لعلي أقع على مكان مرقدها هي وعارف، فتكون زيارة تباركهما بالورد.

فرح الصغيرة أضافت فصلا آخر للرواية أنهيته ولم تنته الظلال المتوالدة بلا نهاية لروحها الذهبية ، تتوالد الظلال من حروف الكلمات في فصل واحد ، في الوقت الذي شئت لروايتي أن يكون لها ظل واحد، ظل ثقيل على بقع السواد والأقبية العفنة حيث يقطن الأتقياء . وفتحت الصفحات كي تنتشر الظلال وتلقي بروحها على أرصفة المدينة ، متنقلة بين القلعة والنهر الصغير ، وقباب المسجد العتيقة ، وحمامات النوافذ المعتمة لمدارس أصحاب الشطحات، وحدهم رحلوا كلؤلؤ يغوص إلى الأعماق بينما يطفو القش على سطح الماء، الظل على الماء ، والنسيم الناعم الهادئ ،وأوراق الأشجار المعمرة على سطح الماء ، وروح فرح تتهادى فوق سطح الماء كولادة وحيدة للشمس بين انكسارات الماء.

***

نزل شادي درج عمارته الصغيرة مخفورا برجال طوال وخشنين حاملا محفظته السوداء ، ومشى إلى السيارة بهدوء، شاهد أهل الحي خروجه ، ابتسم أبو عباس بسمة شماتة ، هامسا في سره : الآن تخلصنا من هذا الكابوس .

وقفت النسوة مندهشات لنجاح المداهمة في اعتقال شادي الذي اختفى بقدرات سحرية مرتين . بكت ميس ولم تفهم رحمة شيئا من المشهد ، راودها شعور بأن الكتاب الذي يخبئه شادي لن يختفي أو يمزق ، لأنه جوهر في ذاته ،وأنها ستراه يوما ما .

مر شهر والغرفة خالية ، نافذتها موصدة وأصيصا الريحان والورد ذابلان على طرفيها بلا سقاية.

حامت ميس حول الغرفة ، تصعد الدرج المفضي إليها ثم تنزل ، تشم رائحتها من الداخل ، مؤرقة بثقل الغياب في الداخل والكل نيام .

حاولت أن تقف على حافة النافذة المفتوحة في المبنى مقابل الدرج للوصول إلى الأصيصين لكنها لم تصل . نزلت متعبة، وفي طريقها إلى البيت سمعت من باب النافذة المطلة على الشارع صوت تأوهات فاطمة وصوت رجال يداعبونها مجتمعين ، وهي ترجوهم بتدلل أن يخففوا وطأة ملامساتهم وشبقهم الأعمى ثم يتوقف الصوت بصرخات تأوه عالية تصدر عن فاطمة ورجل آخر.

بدأ الفقر يزحف إلى المدينة التي ذكرت في مسرحيات شكسبير ثلاث مرات متتالية لسبب غير معروف، لكن الأرجح أن ذلك يعود إلى كونها واقعة على طريق الحرير من آسيا إلى أوروبا منذ عهود

بعيدة ، داهم الناس ارتفاع أسعار السلع ومتطلبات الحياة ، بعد الضربة الكبيرة التي أصابتهم من جامعي الأموال الذين أعلنوا إفلاسهم الكاذب ، واضطر الناس إلى العودة لابتكار أساليب كسب أخرى متنوعة ، بعد الكسل الذي أصابهم وهم يتلقون أرباح أموالهم المودعة كل شهر دون عناء ، كثر باعة الدخان والمتسولون ، ومكاتب السمسرة العقارية ، وانتشر العمار العشوائي المخالف ، رافقه انتشار غير معلن للدعارة بين النساء على خطوط طرقات معروفة بين أوساط المهتمين الباحثين عن المتع المأجورة .

انهارت عمارات كدس المتعهدون طوابقها دون أساسات أو دراسة علمية لتسليح الجدران في الطوابق، وانهار معها الناس ، يتساقطون بطرق شتى، يختلفون ويطلقون الرصاص على بعضهم البعض ، لأسباب تتعلق بالتحايل والنصب والكذب .

بدت المدينة تحت وطأة فوضى عارمة ، على مرأى من الحراس الذين يدعون حرصهم على سلامة سير الخط العام لحياة الناس .

بدأ الحديث في المقاهي ، بين دوائر المثقفين يتخذ شكلا آخر من طروحات مختلفة ، لا إيديولوجيا في الشعر ، الحداثة الأولى دخلت الآن عصر ما بعد الحداثة ، هكذا يطرح إيهاب حسن من أمريكا،

ورولان بارت ينادي بموت المؤلف ، لا بصمة خاصة للمرحلة أو للمؤلف ذاته ، القضية المحورية التي دامت خمسين عام ونيف أصبحت الآن تثقل كاهل المثقفين ومن كانوا يتبنونها بقوة، لا سياسة لا عسكرة للحياة ، المجتمع المدني هو الحل الأمثل لنا، تماما كما وصلت أوروبا إلى الحل نفسه منذ عقود طويلة ، الخارجون من معتقلات الأجنحة اليسارية ، يذهبون إلى المساجد للصلاة ، ويصومون شهر رمضان رغم أنهم لا يتخلون عن دخول المقهى . والمقهى الوحيد الذي كان الشاهد على مبدعي المدينة وكتابها ومتسوليها العاطلين عن العمل ، والنقاشات الحارة ، المعلم الثقافي الذي صار تاريخا للمدينة ، بيع لمستثمرين بعشرات الملايين ، وتناثر رواده في المقاهي المجاورة التي يملؤها المرابون ومدخنوا النرجيلة ، وأصحاب صفقات بيع الأراضي، انهار الناس ، وأطلق الجميع النار على الجميع .

وحدها الحانات الشعبية بقيت مكتظة بالمتحاورين الثملين الذين يستعيدون أمجاد الحوارات الماضية كشكل من النوستالجيا .

- " ضاع تراث الأتقياء ، وتراث الناس ".

يصرخ إيبولا ، بعد أن يظهر فجأة ، ويفتح نافذة غرفته ليسقي نباتاته الذابلة .

يخرج بمظهر طبيعي ، ويرش الماء بثقة وهدوء ، ثم يشغل المسجلة على موسيقى " إيرينا باباس " بينما ينظر إليه أهل الحي باستغراب كبير ، ويفتحون أبواب التأويلات والتخمينات لعودته .

- لا شك أنه خرج بعد أن لم يستطيعوا إثبات شيء عليه ، تقول أم باسم .

- هذا الملعون قادر على قلب القاتل إلى قتيل . يصرخ أبو عباس . وتقف ميس مشدوهة ، تلفها الدهشة والفرح .

- لا ، لقد خرج كشبح ، كما كان في المرات السابقة ، نشاهده كلنا ، لكن الرجال لا يجدونه، ثمة عقاب خلف بيته يحمله إلى السماء ، ومثلما حمله في المرات السابقة ، أعاده الآن بقدرة خفية إلى غرفته ، سالما بلا أذى . يصرخ صوت من طرف الطريق . " وردة لك وورود كثيرة لي فرحا بعودتك ." همست ميس من مكانها كأن طاقة الفرح تحملها كالهواء إلى الأعالي ، لتخبر النجوم بعودة إيبولا .

صاحب الظل ، الظل الذي هو فضيحة الشكل الصارخة.

صعدت ميس بعد أن تركتها رحمة ، التي لا تبارحها مشاهد التفجيرات المؤلمة في مدن وعاصمة البلد المجاور ، إلى غرفة إيبولا ، عرف من دقاتها على الباب أنها هي الزائرة ، دخلت

يتملكها إحساس خفي بالخجل والإحراج ، مندفعة بقوة لا تستطيع السيطرة عليها ، جلست على كرسي بجوار طاولة صغيرة ، كان إيبولا صامتا ، تعلو وجهه بسمة خفيفة ناعمة ، سألته :

- ماذا حل بك ؟! كيف عدت ؟...

- أنا لم أذهب معهم أصلا ، اعتقلوا ظلي فقط، وابتسم بسمة خبيثة وكأنه يدرك أنها ستسبب لها الحيرة .

- كيف ؟ تقصد أخذوا شخصا آخر غيرك ؟...

- لا ، قادوا أمامهم شخصا لكنه ليس أنا بل ظلي فقط ، وظلي عصي على الإمساك به ، من الجدران خرج وعاد إلي ، وها أنا ذا في غرفتي كما ترين .

ارتبكت ميس ولم تجد تفسيراً لما يقوله إيبولا .

- أنا لا أفهمك ، من أنت ؟!....

- أنت تعرفين من أنا ، ما استطعت استنتاجه كاف تماما لإعطائك فكرة جيدة عني كما أظن .

انتابت ميس رغبة عارمة في عناق الظل الذي تفوح منه روائح الحب مجتمعة .

نهضت واقتربت منه أكثر ، لتؤكد لنفسها أنه شيء حقيقي أمامها ، لمست يده بقوة ، ولم يبد إيبولا أي ردة فعل، ضمته بين ذراعيها وراحت تلمس وجهه بوجهها الغض الناعم ، أمسك إيبولا بشعرها ومسح بيده عليه بنعومة وحنان .

- كأنك في حمى الفضول للتعرف علي وعلى تفاصيلي.

تقترب ميس بحميمية أكثر ، وتقبله ، يحاول إيبولا ضبط نفسه ، لكنه ينجرف مع الملامسات والقبل المجنونة، يدخل يده في صدر ميس وظهرها ، تقف أمامه عارية الصدر ويتبادلان على الأريكة الضيقة عناقا حارا يدخلان فيه عوالم الحب المجنون الذي لا يأبه لشيء ، ويتشكل في لحظاته كسعادة لم يدخلها أحد ، وعوالم لم تطأها الأقدام في أرض بكر .

تنهض ميس وفي داخلها ما يدفعها لمزيد من الأسئلة كي تستقر أخيرا ، بعد الفترات الطويلة من التساؤل والاستغراب، لمعرفة إيبولا بشكل أكثر وضوحا .

- من أنت ، لماذا تحيط نفسك بالصمت والغرابة، لا أصدق أنك أتيت من أعالي الجبال ، أو من وراء الضباب ، أو ولدت كالمسيح . يجيب إيبولا:

- ميس ، أنا كما أنا ، بسيط وواضح كالماء والهواء ، لكن الظلال الثقيلة التي ترمي بثقلها على المدينة ترمي بظلالها علي ، بهذا العبء الهائل ، وهذا الانهيار الكبير ، تجتاحني الغرابة والصمت والألم أحيانا ، فلا أجيب على أسئلة يعرفها الناس ، فهم ليسوا بحاجة إلى من يقص عليهم ما يفعلون وما يعيشون .

أحمل سر الرواية الطويلة لهذا المكان ، ما زلت صغيرة ، لكني آثرت أن أحمل هذا العبء وأنثره حبة حبة في أرض صمتت على جبال من الأخبار والآلام ، وتآمرت على نفسها أحيانا بصمتها هذا ، ومع الشياطين ، صمت مرعب أحاط كل شيء .
استطاعت ميس فهم بعض ما يقوله إيبولا .
- الآن أنت الشاهدة الثانية بعد فرح ، صديقتك الصغيرة التي آلمني رحيلها ، وتأكدي أني أعرف ما حصل لها ، آلمني إلى حد جعلني أصر على رسم ظل آخر بحكايتها للرواية .
أخذت معها البقية الباقية من أمل في احتمال أن تعود الشمس إلى موقعها وتعود الينابيع إلى مجاريها والطيور إلى أشجارها وعلاقتها الحميمة بالصباح .
أخذت ثقتي بحركة الكون - والقدرة على تصحيح بوصلة أيامنا ، أخذت من ظلي الذي كنت سأنشره في أوقات معينة حفنة حفنة ، كي يذيب الجليد الذي يغلف أيامنا ، ويرش ملحا حارقا على الحشرات العملاقة التي تقضم أطرافنا .
صمتت ميس ، داعبت خصلات شعر قصيرة في رأس إيبولا وهي تقبل جبينه .
- هل أكلت ، سأحضر لك بعض الطعام ، ثم غادرت الغرفة وهي تلوح له بيدها .

" يا ظل العشب، يا زهر الرمان، يا رب ... يا رب أنت الذي تلملم روحي بجناحيك. "

***

جلست ميس في المساء مع عمتها التي تعيش معها في المنزل، بعد أن سافر أبواها إلى تونس للعمل هناك واستقرا، كانا يرسلان لها مالا كافيا لها ولعمتها كل شهر، ويحادثانها بالهاتف كل فترة ، أخبرتها عن إيبولا، قالت لها إنها قررت أن ترتبط به ، وطلبت من عمتها أن تكون شاهدة على زواجهما السري، تحاورت معها طوال الليل ، رغم رفض عمتها لاستعجالها ، خصوصا بعد أن دخلت الجامعة لدراسة الفلسفة ، ما يفرض عليها التزاما لتتابع دراستها وتنهيها .

دام الحوار حتى مطلع الصباح ، ولم تجد العمة قدرة أمام إصرار ميس ، على إقناعها بالعدول عن قرارها .

تزوجت ميس سرا بحضور شيخ من إيبولا ، كانت حريصة هي وعمتها على ألا يلاحظ أهل الحي دخول الشيخ إلى منزل إيبولا أو أية حركة يمكن أن تثير شكوكا .

بقيت ميس في غرفة إيبولا ومضت العمة إلى المنزل الواسع قياسا إلى غرفة إيبولا الوحيدة ، بدأت ترتبها وتضيف لأركانها بعض اللمسات الجديدة ، مزهرية على الطاولة ، حوض نباتات مجففة ملونة في طرف المكتبة ، ستائر ملونة للنافذة ، ثم قامت بترتيب المطبخ الصغير.

عرفت نساء الحي أن ميس تزوجت من ذلك الشاب الغريب إيبولا ، ودارت بينهم أحاديث تصفها بالخبيثة التي تدير الأمور بصمت حتى تصل إلى غايتها ، ووصفتها فاطمة بالفتاة الشبقة التي لم تعد تحتمل دون زواج .

بعد فترة طالت على غياب إيبولا الذي يبحر في أركان المدينة أكثر من أربعة أشهر ، كانت ميس حاملا في الشهر الثالث ، واستمرت تداري وحام حملها واضطراباته المزاجية بالذهاب إلى بيتها الذي لم تبارحه عمتها ، سمعت كلاما كثيرا من العمة تنتقد به ذلك الزواج الفاشل.

" تحملين وزوجك غائب لا يبالي بشيء ، ولا يقلق عليك ، أي بئر رميت نفسك به ، أيتها المجنونة ؟."

لا ترد ميس على كلمات العمة بل تغسل وجهها وتجلس سارحة في فضاء الغرفة .

تستغرب العمة عدم مبالاتها وشرودها ، وتسمعها تهمس في نومها وهي تستلقي على الأريكة :

- حملته ليكون الشاهد الثالث . ابن إيبولا .

وتتابع العمة تقليب محطات التلفزيون علها تقع على فيلم عربي مسل .

" لطالما كنا جسر العبور عبر التاريخ ، عبور كل شيء إلى أحضان أوروبا وأمريكا ، ولهذا يحيط الدمار والقتل في بلد رحمة الباكية دائما على إرث ضائع " . تتذكر ميس كلام رحمة.

تنتشر الأخبار بين الشبان الجالسين في المقاهي ، أغلبهم عاطلون عن العمل ، حول إعادة هيكلة المنطقة، ورسم حدود جديدة وعلاقات جديدة ، استثمارات، فرص عمل، مجتمع مدني وديمقراطية حقيقية، يختلفون حول الطاولات على المفاهيم ، والمواقف، يؤيدون سياسة الأقوى، ومنهم من يتمسك بقناعاته القديمة حول ضرورة مقاومة ما يرسم لنا، ويحصل الآن .

يصرخ أحدهم : مغفلون، ساذجون، لا تدركون ما يجري حولكم، تسلمون الأمور مجانا بلا مقابل، حتى كرامة أرواحكم، ويتبادل الآخرون إلى جانبه نظرات السخرية منه .

على الطرف الآخر، يتبادل الجانب المتمسك بالدين لغة العنف ويطلق صواريخ قصيرة المدى

على الوهاد والبراري الممتدة، بينما تعالج الأطراف المدنية المسلّمة بفن الممكن والتحاور مع طرف النزاع الآخر بالحوار السلمي العلماني، ولا يصل كلا الاتجاهين إلى حل أو نتيجة .

"يدون صحفيو التاريخ أحداثنا المتلاحقة المتسارعة، هكذا مكتوب لنا ، نحن أرض العبور إلى جهنم ".

- هذا فقط جزء من آثارنا وتراثنا ، يقول شاب وسيم أمام المتحف ، مخاطبا سائحا يلتقط صورة للتماثيل الأثرية، تراثنا وآثارنا أكبر من هذا بكثير، ومع ذلك تأتون لتصويرها ومشاهدتها ، لكننا الآن نُرمى بالقنابل الذكية وهذه التماثيل تبقى جامدة ، لا تشهد على شيء الآن ، أو ربما تضحك في الليل ، لكنها جامدة ، حجر لا يقدم لنا الآن شيئا، أثمانها باهظة، نتغنى بها، ومنها نستمد زهونا وكبرياءنا ونحن الآن جوعى، لا نغير شيئا .

ينظر إليه السائح بتعابير جامدة ، كأنه آت من كوكب آخر ، لا يعنيه ولا يحرك فيه شيئا ما يسمع ، ويتابع تصويره .

***

أهل ميس ، أمها وأبوها ، متفهمان ، أبوها صحفي مهم، له عمود رئيسي في عدة صحف ، لم يمانعا في زواجها من إيبولا عندما أخبرتهما بجرأة ، ما أضافه الأب على موافقته كان فقط أن تحافظ على متابعتها لدراستها الجامعية .

أما الآن فقد تغيرت دفة القارب ، وضعت ميس مولودا ذكرا ، أسمته فرح ، رغم دلالة الاسم الأنثوية ، دخلت بولادتها هذه دنيا جديدة ، صارت العمة مشغولة دائما بالعناية بها ، وهي فرحة ومهووسة بالعناية بطفلها ، تداعبه وتخاطبه كأنه ولد واع ، غير مبالية بالامتعاض المتزايد للعمة من الغياب الدائم للأب .

- أي زوج هذا وأي زوج اخترت ؟!... لا يأتي إلا مرة في الشهر ، يا لك من حمقاء ! تخاطبها العمة .

لا تصدر عن ميس أية ردة فعل أو جواب ، تتابع لهوها مع طفلها .

بدأت ميس ، بعد أن كبر فرح قليلا ، تتصفح كتبا تنتقي عناوينها حسب جاذبيتها السطحية ، وبدأت تنسجم مع بعض الروايات ومجموعات الشعر، لاحظ إيبولا اهتمامها ، فبدأ يرشدها إلى الكتب الأكثر أهمية في مكتبته المنزلية .

تغيرت لغة ميس ومساحة تحليلها واستيعابها ، وصار عالمها الوحيد هو طفلها والكتب المتراصفة

على جدران المكتبة. قرأت بعض أشعار كتبها إيبولا، اتسعت رؤيتها، شدتها كتب التحليل النفسي، والروايات، وبدأت بقليل من البطء قراءة الكتب الفكرية.

أصبح عالمها عالما آخر، تنظر إلى الأشياء بعيون أخرى .

واستعادت جلستها الأولى مع إيبولا حين شرح لها بشكل وجيز سبب غموضه وسر الرواية . بدأت تفهم أكثر ما كان يعنيه وازداد انفصالها عن الحياة العامة للحي، لكن روحها ازدادت تعلقا بشرفة سارة وعارف وقصتهما . وأكثر حبا لقوس قزح الذي ينتشر من وقت لآخر خلف جدار منزلهما ، ونباتات الشرفة التي لا تخضع في دورة حياتها لتحولات الفصول والطقس .

تنظر من شباك غرفتها، الشرفة مضاءة بفراشات منيرة، يبرق في بطونها وعلى أجنحتها ضوء كشعاع القمر، تحوم في فضاء الشرفة كأنها تتراقص لها ، بريقها الأصفر يمنح لحكايتهما عزاء يدركه فقط الشاهدون الثلاثة ، ولا يراها المارة ، تدور حول النباتات في الأحواض الحجرية كأنها تكتب قصيدة شمس .

عادت رحمة مع أهلها إلى بلدها ، انقطعت زياراتها الدافئة عن منزل ميس ، توقفت ابتساماتها

البريئة وبكاؤها على الأخبار التي تسمعها من أبيها عن أقرباء قتلوا في انفجار، ومنزل لعمها هدم تحت القذائف . استأجر المنزل صديقان لأبيها الأول في الخمسين والثاني شاب لم يتجاوز السادسة عشرة .

سمعت عمة ميس شجارا دار بين الأب والابن اليافع يحاول فيه الأب أن يمنع الصبي من العودة إلى البلد ، لكن الابن كان عنيدا ، بكى وعبر عن تعلقه الشديد برحمة ، حاول الأب بسلطته أن يقنعه بالعدول عن السفر ، واستمر الحوار إلى الثانية صباحا ، صمت بعده الاثنان.

ستتوقف رحمة الآن عن البكاء ، وستشتري الحلوى التي تحبها في البلد ، وتعود إلى بيتها الذي يطل على النخيل ، تشم الهواء رغم تلوثه بدخان القنابل ، وترى جدتها الضريرة، تسبح الله ، وتروي حكاياتها لهم كي تخفف خوفهم ، وتجعلهم قادرين على النوم بهدوء .

ستشتري لابن الجيران السرياني الصغير بعض الحلوى وتمضي به في مشوار قرب النهر ، وستروي للأقرباء والجيران قصة البلد المضيف ، وظل الرواية في حي السيوف، وإيبولا وميس، وستنتبه في آخر المطاف إلى أنها تعيش في بلد له ألف ظل لألف رواية .

لكن لا إيبولا يحتفظ بها ويخبئها كي لا تضيع أسرار الوقائع . والتدوين يكتب بأقلام شياطين ، هم أطراف في اللعبة الكبرى .

- سترى ألف هولاكو يمرون قرب بيتهم ، ويلقون التحية الخبيثة .

أما هولاكو القديم فسيبحر طيفه في سماء الدار، يضحك هازئا من الفوضى ، لأنه لوث النهرين بالحبر ولم يلوثهما بالجثث فيما مضى .

***

كنا صغارا نصفق ، لكننا لا نعرف لمن نهتف ونصفق ، ولا نعرف لماذا تدور كل تلك الاحتفالات الضاجة ، نهلل لأشباح لا نراهم ، ونخرج من المدارس فرحين بانتهاء دوامنا، كل منا يتزعم عصابة ، نترصد للعصابة العدو ، ونخلع أحزمة بناطيلنا ونتراشق بالضربات ونرمي بعضنا بالحجر ، تخرج منا عدوانية دفينة لا يعرف مدرسونا سببها ، ونعاقب في اليوم التالي من قبل مدرب الفتوة عقابا شديدا .

تقرأ ميس في دفتر تركه إيبولا في أحد الأدراج .

كنا صغارا لا يؤهلنا عمرنا لمعرفة سبب الحروب التي نشنها على زملائنا . لكننا الآن – نحن الكبار،

لا نعرف سر العنف الدفين الذي يجتاح المدينة ، كفيروس ، يتشاجر المارون على الطرقات، طعنات سكاكين ، لكمات ودماء على الوجوه ، مخمورون ومتعاطو الحبوب المهلسة ، يقطعون الطرقات وتقف أمامهم السيارات بانتظار أن يسمحوا لها بالعبور ، حوادث سير ليس للقضاء والقدر علاقة بها ، قتل ونهب ليلي ، يا الله ، نحن نمضي في طريق مجهول ، عنف يتنامى كالأظافر ليغرز مخالبه في أي شيء. وثمة أكثر من دون كيخوته ، يعدنا بمستقبل جميل ننتظره كسراب تحت السماء .

في الشارع ، تمشي النساء مرهقات الوجوه ، يخفين تعبها وتجعداتها بالمبالغة بمساحيق التجميل ، يضعن أكفهن على أفواههن حين يضحكن بصورة تلقائية كي يخفين الانهدامات والنخور والسواد الذي أصاب أسنانهن ، مرهقات بالوعود الكاذبة وغياب الرجال المهزومين عن ساحات أنوثتهن المخربة، الكل يبتعد عن الكل ، تحت وطأة ثقل الدنيا ، النساء حاضرات بأجسادهن في كل مكان، غائبات عن التفاعل الحقيقي لأسباب مجهولة ، لا يستطعن هم أنفسهم ، التعبير عنها ، غموض يلم تحركاتهن ، وخوف مستتر ينمو داخلهن من التماس المخيف المحفوف بالمخاطر مع الرجال ، يمشين جنبا إلى جنب بمحاذاة رجال غائري العيون وغائبين عن

حقيقة رغباتهن ، لا تأخذهم بهن سوى الرغبات العابرة الرخيصة .

- " يُذكر المشهد إيبولا بالوهدة النفسية والعصاب الذي اجتاح أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية ، يأس ، وخراب في الروح ، ووحدة وغربة ، وميل يائس للتعامل مع الحياة بشكلها الاستهلاكي،

وسقوط القيم العليا لدى الناس ، ويأس من التعامل مع الحياة بصورة جدية ، وسقوط المفاهيم الكبرى أمام الفراغ الهائل الذي عم العالم ولم يبق فيه سوى العمل لإعادة بناء ما خربته الحرب .

أوحى المشهد لإيبولا بتلك الأفكار ، حين مشى وحيدا ، يتأمل صورة العابرين مقارنا ، متيقظا لكل تفصيلٍ من حركات الناس . تردد صدى أفكاره مدفوعاً بإيحاء نفسي غامض تهادت منه جملة طافت حول رأسه كلازمة موسيقية: " حلمتُ أنكِ ضيعتني " .

***

- الشاب محمد الذي يستأجر المنزل مع أبيه يعلق نفسه بحبل داخل الغرفة لأنه لا يجد سبيلا ممكنا للعودة إلى البلد ، فالعودة بالنسبة لأبيه ، هي مقتل حقيقي لابنه الوحيد ، يُنزل الأب الابن من على

الحبل بوجهه الأزرق ورقبته التي يحيطها لون أحمر مائل إلى السواد ينحني فوق جثته يبكي ، يخاطبه حزينا مقهورا :

- لو كنت تريد الذهاب من أجل رحمة لكنت رجوت أباها وجلبتها لتعيش معك هنا ، لماذا كل هذا الأسى والعقاب ، لم أقترف ذنبا في حياتي جديرا بأن يعاقبني الله بهذا القدر .

وتتواصل اتصالات الأب بالبلد يخبر فيها الجميع أن محمدا قد مات ، وأن لاعزاء له في أرض لم يعتد عليها ، وهو ضيف طارئ .

يخرج أهل الحي لتشييع محمد إلى مقبرة المدينة ، ويبقى الأب صامتا في منزله ، لا يُسمع صوته، ولا يخرج حتى لشراء حاجياته من الدكان المجاور .

العمة تشارك ميس بالدخل الذي يأتيها من أبويها في تونس، أحوالهما بدأت تتراجع هناك ، واعتذر أبوها منها على الهاتف عن اضطراره لإرسال مبلغ أقل بسبب الظروف الجديدة التي طرأت على حياته، بدأت حياة ميس تزداد صعوبة .

اختارت العمة تخفيف العبء عن ميس ، صارت تغيب لفترات طويلة خلال النهار وتعود ليلا ، مرهقة بوجه شاحب .

اختارت أن تعرض على سكان العمارات غسل الأدراج وتنظيف البيوت ، كي تكمل الشهر دون

حاجة إلى ميس ، لأنها أحست بأنها صارت تشكل عبئا عليها . عرفت ميس بالأمر وطلبت من العمة أن تترك ذلك العمل ، رفضت العمة طلبها وتابعت .

كانت ميس تداري الحرج والارتباك الذي ينتابها حين تشاهد عمتها بمظهر مزر ، مرهقة بالعمل في البيوت وغسل أدراج العمارات ، وكذلك نظراتها العاتبة التي تعرف معناها المليء باللوم على توريط نفسها بزواج مربك .

خصوصا مع الغيابات الطويلة التي كان يغيبها إيبولا دون أن تعرف سببها ، لكن إيبولا كان يرجع كل شهر أو شهرين ومعه بعض المال ، عرفت ميس أنه كان يذهب إلى بيروت للعمل في البناء ورصف البلاط في أرض الغرف ، لاحظت خشونة يديه ورائحة غبار الحجر الذي يفوح منه .

كتبت رسالة إلى والدها تشكو فيها من رداءة مستوى الحياة التي تعيشها ، والصعوبات التي يعانيها إيبولا وعمتها، راجية أباها أن يقوم هو وأمها بزيارة لها كي يريا حفيدهما، لكن أباها أجابها في رسالة بعد شهرين :

" عزيزتي ميس ، تغيرت الحياة هنا ، وتراجع عملي ، إذا أردت ، يمكنك أن تغادري البلد وتأتي للعيش معي هنا ، على الأقل نطمئن عليك وأنت تحت أنظارنا ، لكني لا أستطيع القدوم إلى البلد ،

أنت تعرفين أني لن أنجو من أيديهم ، بعد هروبي إلى تونس ، فالآراء والمقالات التي تصلهم ملأتهم حقدا ورغبة في الانتقام مني . محبتي لك ."

طوت ميس الرسالة وبكت ، غاب عن دنياها المعنى الحقيقي الذي كانت تعيش حالمة باكتمال دائرته ، وانهارت بين عينيها أساطير كثيرة كانت تحملها في ذاكرتها ، إيبولا يرجع مرهقا ويذبل يوما بعد يوم ، والعمة تعود مرهقة متسخة الثياب ، تحمل في نظراتها عتبا مستترا .

لكنها ظلت تتمسك بما تعتبره انجازها الكبير ، ابنها فرح ، وظلت تتمسك بظل شمس الرواية التي لم تفك حروفها بعد ، رغم أنها بدت غائبة عن ذهن إيبولا المرهق ، أترى نسي ما حيرنا به وفتح بابا لا يوصد من التأويلات والحكايا ، بصمته وغرابته؟!... تسأل نفسها .

وتغني للصغير الذي لا يتردد في الغرفة سوى صوته الناعم الطفو لي .

العمة تكبر والصغير يكبر وهي الأخرى تزداد هما وإيبولا يذوي ، كغيمة وادعة أحرقها البارود.

تنقطع عمتها لفترة عن زيارتها ، فتذهب لتتفقدها في البيت ، تراها في فراشها وكأنها كبرت عشرين سنة ، ترزح تحت وطأة آلام لا تبارحها ، تخبرها العمة أن تشتري لها من صيدلية قريبة حبوبا

مسكنة، أدركت من تقرير الأشعة أنها تعاني من سرطان الكبد ، ينخفض وزنها بتسارع كبير ، لا تجد ميس حلا سوى مغادرة غرفتها والبقاء مع طفلها بجانب عمتها التي تكابد الآلام ليلا نهارا لخدمتها،
كأنها دخلت طريقا ونسيت اتجاه الخروج منه .
متسول يغني تحت نافذة البيت ، غير مبال بالمطر الغزير الذي يهطل في الخارج ، يتساقط الناس كأوراق الشجر ، ويصبح أبو محمد من الرواد الدائمين لفاطمة التي تتصدق عليه بهباتها الجنسية، يمتلئ الحي بالغرباء الذين يتنقلون في الشوارع كالقطط ، تملأ أصواتهم صمت الليل ، وتختفي مع قدومهم هوية حي السيوف ، يهدمون الجدران ، ويقيمون أخرى ، ويحفرون الشوارع ويتركون الحفر دون ردمها ، ينهار إيقاع الزمن تحت أقدامهم .

يتحرك الليل ثقيلا على شرفة عارف وسارة ، وتنمو نباتات شوكيه على حواف البيت ، يختفي ظل القمر في الأعالي بعيدا ، وينكسر قوس قزح الممتد خلف جدار منزل سارة فيبقى معلقا بين فضاء مغبر وشوك يتنامى ، تطلق ميس صرخة مفجوعة حين يخمد النفس الأخير لعمتها ليلا ، ويتبادل نسيم الليل الظل الهادئ لحياة من غابوا على أطراف المقبرة

خارج المدينة ، بين عمر يولد وآخر يخمد تحت الحجر.

" أطلقت طيوري وقلت لها عودي ... فلم تعد ."
تصرخ ميس.

***

"نافذة تطل على الخارج...أما نافذتنا فهي تطل غلى غرفنا ونحن نريها ان ترينا كيف حلّ الربيع بعد ثلج طويل،وكيف تفتحت اوراق الشجر وزهر المشمش ولون السماء.ان تسمح للهواء الجديد بالعبور الينا. تطل على الخارج كي يُرى الافق عاريا،وتخرج الرؤية من ساحة العماء،والخفوت الصامت لحركة الاحياء،والرقصة الماجنة في زواياالخرى.نافذتان متقابلتان واحدة ترتد الى الداخل،والاخرى تتسع لتحيط الخارج بقوس مفتوح" تقول ميس.

مضى أكثر من عام ولم يعد إيبولا، دخلت ميس دوامة حزن لا تنتهي، وهي تترقب عودته، فتحت دائرة تأويلات وتخمينات عن سبب غيابه، لكنها لم تصل إلى مبرر مقنع، كتبت ميس رسالة وجهتها إلى عنوانه السابق ، بدأت الرسالة بيد مرتجفة :

عزيزي شادي، تخليت عن كل شيء وتركني الجميع، حتى عمتي التي رحلت منذ أيام ، لأجلك، لماذا كل هذا الغياب ؟ لا أفهم سببا حقيقيا له ، أترك الدنيا وأتذكرك ، غائبا وحاضرا في ذاكرتي، يعاقبني غيابك بأشد أنواع الآلام ضراوة ، أخبرني فقط أين ذهبت ، وكيف تعيش؟

لماذا لم أعد أراك ، غيابك هذا أقسى بكثير من حضورك السابق ، أيام كانت الأسطورة التي نتحرز عنها، كنت محاطا بهالة من السحر ، وكانت تأويلات النساء تزيدني رغبة في التعرف إلى روحك ، أما الآن فقد أضاع غيابك بوصلة أيامي ، وتوجهي في الزمان والمكان .

أعيش الساعات بوحدة قاتلة ، لا أجد عزائي إلا بفرح ابنك الذي سيكبر دون أن يعرفك ، الورود على شرفة سارة وعارف ذبلت ، ورحمة غادرت إلى موطنها ، وعمتي ماتت بمرض السرطان ، وتغير الحي بقدوم أغراب شوهوا معالمه وبنوا جدرانا منخورة تشبه القبور كي لا يحنِّوا إلى الأرض التي أتوا منها ، لا أريد منك شيئا سوى تفسير واحد لسبب غيابك ، كيف تقوى على الغياب عني وعن فرح ؟... أين الرواية التي ظلت لسنوات أسطورة تجعل لك معنى وتدفع الجميع للحصول على ابتسامة أو تلويحة يد منك ؟...

أحيانا أفكر أن عودتك لم تعد تهمني ، فقط ما يهمني أن تعود الرواية ، وأفكر أحيانا ألا تعود الرواية وأسطورتها ، بل أريدك أنت ، ما زلت أضيع كما تنثر الرياح غبار الطلع في الآفاق ، العزيز إيبولا أرجو أن ترد على أسئلتي ."

تنتظر ميس في الأيام القادمة أن يأتيها رد من السماء ، تدور الساعات والأسابيع ولا يردها رد ، تتابع حياة رتيبة مع طفلها فرح ، الذي يساعدها على رتابة الأيام التي اشتدت عليها ظلمتها ، وصار الأغراب يحومون حول غرفتها ليلا بعد أن ظنوا أنها أرملة جميلة وحيدة .

تسمع أصوات وطقطقة سكاكينهم خلف شباكها ثم يمضون بعد أن ينهكها الخوف .

- كنت أعيش كذبة كبيرة ، ظننت أنها حقيقة لا يمكن أن تندثر ، والآن تلاشى كل شيء، تقترب مني حقيقة الفجيعة ، والخدعة الكبرى . تقول ميس محدثة نفسها ، أردت أن أمنح العصافير حريتها فأطلقتها ولم تعد، كشمس ظللتها بكفي وحين سحبته اختفت عن الدنيا .

تسمع ميس حديث أبي محمد ، وهو يتكلم عبر الهاتف المحمول بصوت مرتفع ، صوته يعلو جملة بعد أخرى ، تدرك من مجموع حواره الذي دار أن حدثا مخيفا حدث لناس مقربين منه ، يعلو صوته

وينخفض حسب طبيعة حديث الشخص الآخر الذي يتحدث معه من بلده .

شكت ميس بحدوث شيء غير طبيعي ، ذهبت إليه لتسأله عن الخبر الذي وصله ، بدا أكثر انكسارا من جدار شاهق هدمه زلزال .

- وقع انفجار هائل في الموصل أحدث حفرة قطرها بحجم حي كامل ، قتلت فيه رحمة وأهلها ولم ينج سوى أخيها الصغير وجدتها العمياء ، ليرحمك الله يا ابني محمد، رحلت قبل أن تصلك الأخبار الفاجعة، جنبت نفسك موتا بالحريق .

- ما الذي يحصل هناك ؟ يقول قريبي إن مئات الأشخاص ماتوا في الانفجار ، أصبح البلد ملعبا وساحة للانتقامات المخبوءة الدفينة ، لا أحد يعرف من يفخخ السيارات ولماذا ، هذه الحرب كشفت عن أشياء مستورة في أعماق الناس ، الذين يلعب بهم دراكولا الحروب كي يقتلوا بعضهم بعضا ، لم نعد نعرف من سنفقد في الغد . ويصمت أبو محمد. تستأذن ميس وتنسحب بقدمين متثاقلتين، مذهولة بخبر موت رحمة ، كأن عملاقا ضخما معتوها يمسك حبلا علقت فيه كرة حديدية ويلوِّح بها في السماء ، في كل لحظة تضرب رأسا بصورة عشوائية ، ليسقط وتليه رؤوس أخرى لا يمكن التكهن عن سقوطها اللاحق.

-" جئنا من أجل الأمان والديمقراطية في بلد يرتجل الحروب على جيرانه الآمنين ." يخطب دراكولا من محطة تلفزيونية أمام مؤتمر صحفي ، غير واثق ، يصارع العلامات التي يخلفها الويسكي على حركاته وقسمات وجهه ،

بعد أن فشلت كل مراكز التأهيل لمعالجته من الإدمان على الكحول .

***

غياب إيبولا جعل ميس تعاني من ضائقة مالية حقيقية ، بعد أن أصبحت النقود التي يرسلها أبوها من تونس لا تكفي كي تسد حاجاتها وحاجات طفلها فرح ، فكرت بالعمل ، ولم تكن الفكرة ممكنة دون تأمين رعاية لطفلها في غيابها ، طلبت من حياة ، المرشحة الأفضل في الحي أن تعتني بطفلها مقابل بعض المال ، وافقت حياة بنبرة مرحبة وحنونة قالت :

- لا تحملي هما ، هو طفلي أيضا ، بالعكس يمكنني أن أرعاه حتى تعودي ، أحب الأطفال ، وأحن إلى إنجاب طفل ، لا أريد منك مالا .

أذهل ميس ترحاب حياة بالفكرة ، إذ لم تتوقع أن توافق تلك المرأة ذات السمعة السيئة ، لكن قبولها كشف لها عن إنسان طيب يختبئ في داخلها .

عملت ميس مديرة مكتب إحدى الشركات التجارية ، يملكها شاب بدين ، تتلقى في عملها المهاتفات وتسجل المواعيد ، وتستقبل الزوار مقابل أجر لا يزيد عن خمسة آلاف ليرة ، استمرت في عملها بهدوء أكثر من شهرين ، لكنها قررت ترك العمل بعد أن طلب منها المجيء في يوم الجمعة مساء، لكي تنهي ترتيب بعض الملفات المتراكمة، شعرت في المرة الأولى بترتيبات غير مريحة تجري بعد دخول زوار رجال مع فتاة إلى المكتب ، ولم تجد مبررا لمجيئها ، ففكرت أن تعرض على صاحب العمل أن يعفيها من المجيء يوم الجمعة ،لكنها غادرت العمل فورا بعد أن رد قائلا :

- ألا تعرفين أن صاحب العمل الذي يعطي أجرا لسكرتيرته ، يجب أن تكون مطيعة في كل شيء؟

- السكرتيرة يا ميس ، في كل الشركات ، هنا ، يجب أن تلبي احتياجات العمل وصاحب العمل .

أجابت :

- أولا أرجو مخاطبتي بالسيدة ميس ، لأن إزالة الحواجز والرسميات أمر غير مرغوب بالنسبة لي ،

ولكن هل أفهم منك أن السكرتيرة هي ملك الشركة ما دمت تدفع لها ؟...

- نعم ، أصبت ، ملك الشركة تماما .

غادرت ميس المكتب وهي تلعن صاحب الشركة، بعد أن تجاهل أن يدفع لها مستحقاتها من الشهر الماضي .

- " الفروض كثيرة على الفتاة ، في بلد كهذا ، كان عليك أن تدركي هذا يا ميس " حدثتها حياة .

- لكني لا أقبل ذلك .

- إذن عليك أن تجلسي في البيت .

وبفكرة مرتجلة وسريعة ، قررت ميس أن تعمل كعمتها، لكن بشيء من السرية ، أخبرت حياة أنها تعمل في مكتبة قرطاسيه صاحبتها امرأة ، غيرت ثيابها ، وبدأت تتفق مع أصحاب العمارات لغسل الأدراج وتنظيف البيوت .

تعود منهكة كل يوم ، مشتاقة لفرح الصغير ، يداها متآكلتان من مساحيق التنظيف .

غنت للصغير تهدهده على فراشه ليلا ، وانهمرت دمعات انسابت هادئة على طرف خديها .

يا زهر الرمان ، يا ريحان الجنائن وحواف النوافذ، تعبت يداي من مسح الغبار الأسود عن الورد، لكن فيكم عزائي ، الذكرى التي تجعلني أتمسك بهذا

المكان وتمنح أمومتي دفقا أجمل لكي أهدهد طفلي ، تغني ميس .

صورة المدينة ، تصبح أكثر إثارة للحيرة والارتباك، والقلق من الأيام القادمة ، هذا ما تثيره في نفوس من لديهم القدرة على فهم الحكاية وتحسس ما يجري ، إلا أنها تسير بشكلها العادي كل يوم ، بين الناس السائرين كالدمى في الشوارع، يشترون ويتسوقون حاجياتهم ، يتبادلون الشتائم ويتشاجرون مع سائقي التاكسي ، والسيارات المجنونة العابرة التي لا تحترم مرور الناس في الشوارع و لا شارات المرور ، ويصول باعة الدخان المهرب في الشوارع كملوك ، اشتروا الشارع بأبعاده الأربعة ، دور السينما القديمة تكتظ بالمراهقين الذي تثيرهم أفخاذ الفنانة نيكول كيدمان ، ونهود الممثلات الهنديات المرسومة على اللوحة الخشبية الكبيرة في مدخل السينما ، بينما يدور الرجال والشبان في الحديقة العامة بحثا عن صيد امرأة أو اقتناص طفل لا يتجاوز الثانية عشرة مجهول الأهل، مشرد في شوارع حلب .

ترمي ظلال المدينة بأطيافها القاتمة على الروح ، يتذكر بعض المارين ماضيها ، والمظاهر التي كانت تؤهلها لتصير مدينة كبيرة هامة تستقطب احترام العواصم والمدن .

لكنها كما قالت ميس يوما مع رحمة : نحن منطقة العبور ، مدينة العبور من كل شيء وإلى كل شيء . البقعة التي تخدم الكثيرين لكنها لا تخدم ناسها .

تسلقت ميس الجدار إلى غرفة سارة وعارف ، حاولت سقاية أصص النباتات التي بدت ذابلة ، بشكل يثير الشفقة، حركت التراب حولها ، ونظرت إلى حركة النحل الذي يحاول بصعوبة شق طريقه بين التراب المتراكم على الشرفة ، ولمحت بقايا القوس المنكسر تتهادى داخل الغرف من خلف الشباك الخشبي .

- تلقت رسالة من إيبولا ، ارتجف جسمها للفرحة العارمة وهي تتسلمها وتقرأ اسم مرسلها ، لكنها أصيبت بإحباط كبير حين شاهدت أن الرسالة لا تحوي أكثر من سطرين كتب فيها إيبولا:

-" حبيبتي ميس ، أنا لم أختف عنك ، أحبك أنت وفرح، لي أسبابي في الغياب ، سامحيني ، وثقي دائما بعودتي ، لا أستطيع شرح الأسباب الآن ، محبتي ."

أنهت ميس الرسالة ، فرحة محبطة في الوقت نفسه ، أرادت للرسالة أن تطول أكثر وأكثر ،

كي تعيد إليها ولو عبر الكلمات المكتوبة ، ذكرى إيبولا ، ورائحته ، التي افتقدتها لفترة طويلة، أرادت أن تقرأ أكثر ، لكي تشتكي لنفسها عما

أصابها في غيابه ، وعن الوحدة التي تعيشها بعد أن طوت الرسالة ، رمتها بيد مرتجفة، وانهالت دموعها ، وهي تقبل فرح ، وتنظر إلى الأخاديد التي فتحتها المياه ومساحيق التنظيف في يديها .

لم يكن على طرف ظرف الرسالة عنوان لإيبولا ، ربما لم يكتبه لأسباب قاهرة ، لهذا شعرت ميس بطريق مسدود يزيد يأسها وإحباطها . رسمت الحروف المتداخلة من بين دموعها جملة قصيرة: " حلمتُ أنكِ ضيعتني " .

الأحصنة التي تفيض قوة وذكورة ، تركض ويتراقص شعر أعرافها بعضلات لامعة ، إناثها تدور حولها ، والحصان الأسود الفحل يثير الغبار بعد أن يقفز على المهرة فتقع أرضا ، تلوح الصورة في خيال أبي عباس بعد أن أقعده مرض السكر الذي بدأ يغزو أطراف قدميه بالغنغرينا .

يخرج مسدسه الأسود ، ينظفه ويحرر أمانه ، يصوب به في كل الاتجاهات ثم يرميه على الطاولة جانبا ، كأنه لم يعد يعني شيئا له الآن .

اجتمعت الفراشات من كل صوب في البيت القديم لعمة فرح ، التي ما زالت ذكرى حاضرة في ذاكرة ميس ، حامت ملائكة بيضاء في ساحة الدار ، بينما كانت العمة نائمة بعد الإجهاد الذي أصابها طوال النهار ، وبعد أن أنهت تحضير القهوة المرة لزوجها

العجوز الذي يصبها لموظفي الدوائر ويتقاضى مقابل ذلك قيمة رمزية لا تجمع ثمن كيلو غرامين من الخبز .

أضاءت الفراشات الأقبية الصغيرة ، وأنشد الملائكة ترانيم صوفية ، بينما كان العجوز أبو حمدو يستلقي على فراشه ، ويهذي بأسماء النجوم التي لم تدون في كتب التدوين بعد ، كان يحرك يديه كأنه يقطف ثمارا ، هي مزيج من الحب الصوفي لروح الدار الصغيرة المتعبة وحب الطيور في السماء ، يفتح عينيه أحيانا ويغمضهما بعد قليل، يبسط يديه المعروقتين على فراشه ، ويبتسم للكائنات التي تقيم احتفالها ابتهالا لصعوده بوابة السماء .كانت المدينة بأبوابها ومدارسها القديمة ومساجدها ، تحتفل بما يشبه الضوء الليلي في بؤرة الحي الصغير ، المقام فوق مقبرة الأسلاف ، قريبا من القلعة . تنشر أقواسها بأطياف الضوء والأغاني إلى ساحة الدار ، وتنعطف إلى القبو الذي يتمدد فيه جثمان الشيخ ، لفظ أبو حمدو أنفاسه الأخيرة ، لكنه قبل أن يسلم الروح ، زار قبر والديه ، في مكان قريب منه، أو ربما تحت منزله ، وزار مقامات الأولياء في الجامع الكبير ،

وزرع ورودا على أطراف القلعة ، وتوضأ في المساجد ذات الحجر المائل إلى السواد ، المغبرة

بتاريخ المدينة ، ثم عاد مع أشعة نجوم المساء إلى مرقده في قبو الدار ، وأسلم الروح بعد أن رتب الكتب القديمة ذات الصفحات الصفراء ، التي قضى بعض وقته ، يعيش بها على أمجاد الماضي ، مصغيا إلى شاب يافع يقرأ له ما دوُّن فيها ، لأنه لم يكن يجيد القراءة ، بكى أبو حمدو خلال السنين الطويلة التي كان يصغي فيها إلى سيرة الكتب بما يزيد عن كلماتها، متذكرا فترات شبابه وبعض ذكرى الآباء والأصدقاء .

نهضت العمة النحيلة كي توقظه بعد أن حضرت القهوة المغلية ، لكنها أصيبت بالفزع والدهشة أمام جثة تكاد تشبه الطيف ، بثوب أبيض وقسمات توحي بالطمأنينة أكثر مما توحي بشخص لا حياة تدب في جسده ، حركته، لكنه لم يجب ، أدركت العمة أنه فارق الحياة ، بدأت تتنقل كالمجنونة من ساحة الدار صاعدة الأدراج إلى الغرفة في العلية ، ثم مدت رأسها بعد أن عبرت السلم إلى سطح الدار ونادت على الناس أن زوجها قد مات كمجنونة بلا وشاح يستر شعر رأسها .

سمعت ميس بموت زوج عمة فرح ، فاجأها هناك رؤية أم فرح جالسة مع النساء ، أسرعت وقبلتها بمحبة ، لكن أم فرح لم تبادل ميس الحميمية ذاتها، بل نظرت إليها بجمود ولم تبالي لتحيتها وقبلاتها ،

بدت كائنا معزولا عما حوله، تراجعت ميس مذهولة ، وعادت للجلوس في مكانها .

ـ " كيف سأدخل بوابة المدينة ، وبأي زي سأدخلها حاملا صندوق الآلام لأناس ميتين ؟! كيف أواري الطعنات التي ارتسمت على وجهي وجسدي ؟ ربما لا أرى بشرا حقيقيين ، بل دمى تتدحرج من شارع إلى آخر ، لها وجوه أخرى كما صار للمدينة وجوه مختلفة لا يتعرف إليها المغترب القادم من وراء البحار ، محملا بذكرى الأيام الماضية ، وهل يستقبل موتاي ورودي ، وأنا في الأعلى يصفعني عتبهم القاتل ؟ كيف يمكن أن تصل رسائلي إلى الغائبين ؟ كي يخففوا ألمي ،وأبرر عدم اكتراثي بغيابهم علهم يجدون لي عذرا فأحيا أكثر راحة ؟ إذ خرجت بأذن واحدة وعين واحدة ، وأربع أصابع في يدي اليمنى وكتف مخلوع من مكانه ؟ طفلي يعاتبني في حلمي لكني لا أصله، والنجوم انطفأت من النافذة العالية الوحيدة التي كنت أتسامر معها من خلالها في الليل .

القطارات مضت وعادت آلاف المرات لكن القطار الذي يحملني ابتعد في اتجاهات مجهولة وضيَّعه من يعرفونني ، بأي لغة علي أن أحاور هذا الزمان وهؤلاء الناس ؟ غياب يلم الكلمات ، وغياب يلم

الأصدقاء ، ورحيل مستمر للأمكنة التي احتضنت طفولتنا .

تساقطنا ، الواحد تلو الآخر ، وبقي الحجر شاهدا لا يستنطقه الأحياء الآخرون ، ماذا تبقى منا كي نلوح للقادمين بأيدينا أو نلوح لمن افتقدنا طويلا، وجلس يدور عجلة الزمن الرتيب بأصابعه وهو لا ينتظر أو يتوقع ردا على الأسئلة المتلاحقة التي تتناثر مع غبار الصيف ، لتحط في أمكنة مجهولة لا يعرفها أحد ؟

يكتب إيبولا على ورقة بيضاء كأنه يهيئ رسالة لا تصل أو يفرغ شكوى لا يقرؤها أحد .

- أقسم أنني سأعرف مكانه . تقول ميس : أنا الآن امرأة أخرى ، أعرف كيف أحيا ، وكيف تدور الدنيا من حولي . لم أعد تلك الحالمة البسيطة المستغربة دائما والمسكونة بتساؤلات لا أحد يجيب عنها ، مذهولة بعوالم تفاجئنا كل يوم بما يناقض أحلامنا وما علمتنا إياه حكايا الأم والأب والجدة ، أخبار وأحداث تكسر الطوق الماسي البراق الذي نعيش بداخله دون أن ندرك الفارق بين ما يحكى في البيت وما يحصل في الخارج ، الخارج المتناقض الجارح ، والقاتل أحيانا ، سأرفع مذكرة إلى حقوق الإنسان .

وتجيبها الفتاة الشابة في البيت الذي تنظف فيه كل أسبوع ، تدرس الصحافة وقد قاربت التخرج :

- أي حقوق إنسان ؟! تجيبها ميس باستغراب :

- على الأقل يسألون عنه ، ربما يستطيعون أن يمسكوا رأس خيط يدل عليه ، لقد تعبت وضعت بسبب غيابه ، هل أفهم من كلامك أنهم لا يعملون من أجلنا ؟.

- لا ... لا أقصد ذلك ، ما عنيته أنهم ربما لا يصلون إلى نتيجة، أو لا يستطيعون فعل شيء .

- يا الله ! لمن ألجأ إذن ؟!... كان أكثر وداعة من أن يعتقل كمجرم سفاح بين أربعة جدران ، ما يحمله كان حوارا مفتوحا مع الآخرين ، مطالب لنا، وأفكاراً عن الناس ، حماية أحلامهم وحياتهم البسيطة ، وحماية تاريخ المدينة ، مجرد حوار .

تضحك بشرى الصحفية وتدعو لها أن تعثر عليه قريبا .

- تسعى الطيور والنباتات وحيوانات البر الأليفة إلى الخضوع إلى ضرورات العيش، ترتب عالمها بطريقتها الخاصة، تمنحنا في بعض الأحيان عزاءات، إدراكها لديناميات ضروراتها يبدو أعمق منا، نحن أصحاب الضربات العمياء، أنبياء أحيانا وبرابرة في أحيان أخرى، رهافة التوازن في دنيانا أكثر عمقا من أن نفهمها، لهذا نحن بحاجة إلى مراكز تأهيل روحي، كي نعرف حجم الخراب الذي

أحدثناه في عالمنا، في أرواحنا التي ولدت نقية ، شفافة ، حرة .

من يدير مراكز التأهيل تلك ؟! لا أدري لكن على الأقل ليس نحن . تكتب ميس في المساء بعد أن نام فرح ، في هدوء الغرفة ، حين راودتها أفكار متطايرة رغبت أن تدونها.

" لأجلكَ تخليتُ عن فرحي، لكني كررت الأغنيات كي تعود . "

***

الكل يقرأ في الغرفة الموصدة، منهم من يقرأ كتبا باللغة الانكليزية ، وآخرون يقرؤون ابن رشد، ومنهم من يعيد قراءة ماركس والياس مرقص، بعضهم يقرؤون كتب التداوي بالأعشاب ، وحين توشك الشمس على الغروب يهمد الجميع ويرحلون في عوالم يخبئها كل منهم لنفسه ، لكنها لا تخفى على المتأمل ، يرفعني صديقي إلى الأعلى ، أقف على كتفيه ، لكني لا أرى صورة الأرض بترابها وأعشابها الشوكية ولا أرى الشمس وهي تغرب ، النوافذ عالية ، والخارج تصعب رؤيته ، لا نراه كي تزيد أحلامنا ، كل في سجنه الخاص يفكر بالمفتاح ، الكل يرسم زنبقته الخاصة ويتكئ على طرف الوسادة ويحلم بهؤلاء الذين في الخارج ، نساء ،

زوجات وأطفال ، وحبيبات غابت معالم وجوههن ، حيث الخارج أصبح شيئا مجهولا . تذكرت سطراً من شعر رفائيل ألبرتي: شرفاتي عالية، لكن البحر لا يُرى .

زكي سارح فوق سريره منذ الواحدة ظهرا ، سبع ساعات وهو يتأمل أشياء لا نراها ، نحن الآخرين ، لكنه يحلم بما لا يمكن أن نراه ، ربما صديقة تركها ، أو أما تنوح على فرقته ، يزرع نبتة صغيرة في زجاجة ماء ملأها بالتراب وينتظر أن تطول أكثر لتملأ الغرفة المظلمة بأوراق خضراء تمنح السلوى للآخرين ، أحد الأصدقاء لمح توفيق في تواليت الغرفة يقطع أوردته بشفرة حلاقة ويتقاطر دمه ظاهرا في القسم المكسوف من أسفل الباب ، نهرع جميعا لإنقاذه ، بينما يرتمي هو على الأرض فاقداً الوعي ، بعد أن نخرجه إلى غرفة الإسعاف يصارع الجميع أمواج بحر تتدفع من الممرات الضيقة ، وتتدفق داخلة غرفة زنزانتنا ، يصارع الجميع موج البحر ، ويداري زكي نبتته الصغيرة ، يرفعها إلى أعلى السرير على الطابق الثاني فوق السرير الأول ، وينشد الجميع فرحين لمجد الماء ، ثم نخمد جميعا على صرخات السجان ذي الصوت الغليظ وهو يأمرنا بالهدوء والنوم ، فننام مرهقين من ذكريات دامت أكثر من عامين في يوم واحد ، وظهيرة

واحدة ، وصباح لا ينتهي حتى حلول المساء الذي يرمينا على الأسرة متعبين ، من خيالات نجهل إن كانت صحيحة أم نتاج حرمان طويل .

يصحو الجميع بعد ساعات قليلة على صوت نادر الذي كان يتلقى الصفعات واللكمات وضربات السوط لأنه كان يحضر إبريق شاي اشتهيناه جميعا منذ بداية المساء ، يدخل نادر في هذيان لا نعرف معناه ، لكننا نعرف أن له معنى حقيقيا بالنسبة له .

نحن هنا ، نفكر بالمفتاح ، وهذا السجان الذي لم يقرأ سطرا من السطور التي قرأنا وتسببت في دخولنا السجن ، يحمل المفتاح بكل بلاهة وبساطة، ويتحكم بأرواحنا وأعمارنا ، يتحكم بالدمع والجراح ، ويتحكم بقصائد الشعر ، والموسيقى ، والعلاقات التي لا يدرك أنه يمارس علينا حرمانه المر منها ، بينما يذهب لتناول قصعة الطعام بغباء لا يمكن تخيله ، راضيا ، سعيدا ، قانعا بالحياة التي يعيشها ، لا يؤرقه ما يؤرقنا ، ونسأل أنفسنا : من الخاسر في هذه اللعبة نحن أم هو ؟.

ويصرخ بنا : ألا تفكرون بقضيبكم ؟ ألا تفكرون بنسائكم ؟ يبدو أنهن اخترن شركاء آخرين دونكم ، لأن رحلتكم طالت ، أنتم الظالمون، والله يعاقبكم على فعلكم هذا ، مغفلون!.

ويمضي في الممر ضاحكا ، نتبادل الضحك على جملته التي تثير شعورا فينا بسطحيته وبلاهته ، ثم نعود إلى فراشنا، كل إلى دنياه الخاصة ، بانتظار صباح جديد لا يحمل لنا معنى في عالم مغلق بالصفيح ونحن نعاني محرقتنا في كل لحظة من عمرنا هنا .

استطاع سعيد وهران الذي دخل المعتقل مدمنا على الكحول والماريهوانا أن يتخلص من النوبات العصبية التي تصيبه بسبب انقطاعه الكامل وحرمانه منه ، لكنه لم يتركه بمصحة أو مركز لمعالجة الإدمان، بل كانوا يجرونه إلى الطابق الأرضي ويتعرض لجلدات سياط لا تتوقف إلا بعد أن يتوقف عن الصراخ ويدخل في غيبوبة ، كانوا حريصين على عدم وجود عوامل خطورة في الزنزانة يمكن أن تودي بأحدنا إلى الموت أو الانتحار ، إضافة إلى حرصهم على نظافة الناس من العادات التي تؤثر على مستقبل المجتمع ، وجيل الشباب .

***

غسلت ميس ثياب إيبولا التي كانت مطوية في خزانة ، ونشرتها على حبل غسيل ، اندفعت إلى

فعل ذلك، لكي توازن الخلل الذي أحدثه الغياب الطويل له ، حين تنظر بين الحين والآخر إلى ملابسه فتراها منشورة على الحبل ، نظيفة بانتظار أن يلبسها حينما يأتي .

طريقة لجأت إليها لقهر الغياب الطاغي الذي أفرغ روحها من أي طاقة ممكنة . كانت حريصة على أن تكون مجموعة حلاقة ذقنه وفرشاة أسنانه موجودة دائما على رف المغسلة كي توحي لها بأنه قد حلق ذقنه للتو وغادر إلى عمله.

كل تلك الحيل ، لم تملأ فراغها الروحي وبحثها عن إيبولا الغائب ، فقدت جدران الغرفة ورائحتها ، والضوء الخافت فيها ، والكتب ذات المظهر الخاص قدرتها على إحداث تأثيراتها المحببة التي كانت تجعلها مأخوذة بالأحلام الحلوة ، والسعادة التي لم تكن تتخيل أن أحدا كان يشاطرها إياها .

حين نظرت من الشرفة الواسعة في منزل أهل الفتاة الصحفية ، انعكس ضوء الشمس الغاربة بشعاعه اللطيف خلف الزجاج الملون ، ورأت الأرض الممتدة والنباتات المتراقصة بفعل النسيم طعما آخر ومظهرا من مظاهر الدنيا الجميلة التي يعيشها آخرون .

ظلت المرأة الأولى التي أشارت إلى إيبولا بأصابعها للناس، وهي تقول : هذا هو صاحب

الرواية ، أم كريم ، التي هاجر ابناها إلى اليونان وتركاها دون عودة عدا بعض النقود التي كانا يرسلانها لها كل شهرين أو أكثر ، تدور في شوارع حي السيوف ، كأنها تبحث عن شيء ضائع ، بدأ ظهرها ينحني قليلا وبصرها يضعف لكنها ظلت من فترة لأخرى تردد : هذا هو صاحب الرواية ، وتشير بأصبعها الصغير إلى نافذة غرفة ميس وإيبولا وشرفة سارة وعارف .

تراءى لميس أن هذه المرأة تعرف شيئا عن إيبولا وعن حكاية سارة وزوجها ، إلا أن أم كريم كانت في حالة هذيان دائم ، لا ترد على السؤال بإجابة ذات علاقة بالسؤال ذاته .

أصبحت أحواض النبات والورود مجرد وعاء لبعض الأتربة الحمراء المائلة إلى لون التراب على الشرفة ، واختفى بهاء القوس الذي كان يضيف للمنزل المهجور والغياب الذي كان يجثم عليه،معنى ساحرا لعيني فرح وميس . انكسرت المرآة التي كانت تعلو مغسلة الشرفة ، وتناثرت في حوض المغسلة، المرآة التي كانت تعكس وتخزن الأحداث السرية في ليل الشارع ، وأصبحت القطط تجد مرتعا آمنا للولادة هناك على أرض الشرفة ، التي تشقق بلاطها بينما طمس الغبار الشديد نقاط الدم القليلة التي تناثرت عشية اختفاء عارف .

***

اجتمع أهل الحي قرب باب منزل أبي عباس ، بعد أن أطلق طلقة من مسدسه في رأسه ، منهيا بذلك حياة تسير إلى نهايتها بطريقة مريرة .

لم يخرج في جنازة أبي عباس سوى قلة من أهل الحي ، وبعض من أقربائه في القرية النائية التي رحل عنها منذ خمس وعشرين سنة .

بدت ظلال الأفكار واهية ، تلوح كطيف يخبو في أركان الزنزانة الصغيرة ، يتبادل فيها الرجال نقاشات متنوعة ، ولا يصلون إلى صيغة يتفقون عليها، علا صوت ماهر من طرف الزنزانة بنبرة أقرب إلى العصبية :

- ألا تلاحظون أن في كل منا زنزانة أفكار مغلقة في رأسه ، كأننا نحوي أصناما فكرية في داخلنا ، والكل لا يسمع إلا نفسه ، ما الذي فعلناه في آخر المطاف ، هل تغير شيء ؟ هل استطعنا أولا أن نتفق على أننا جميعا نحمل بعضا من الحقيقة وليس الحقيقة المطلقة كلها ، كفانا ركضا وراء سرابات أيها الأخوة . يوافقه نادر الجالس إلى يساره، وتختلط الأصوات بالتعليقات والاعتراضات ، ينهيها

السجان سليمان الذي يأمر عمال الإطعام بإدخال الطعام وتوزيعه على الرجال داخل الغرفة .

يهمس سعيد وهران الخارج من مدرسة الإيديولوجية والمعالج من إدمانه على الكحول بأساليب الحرمان والعنف القاهر :

- أنا أحسد سليمان يا شباب ، أفكر أحيانا أن كل هذه اللعبة ليست جديرة بإحراق كل تلك الشموع ونحن نلعبها في العتمة ، هذا بالمناسبة مثل انكليزي ، ما رأيكم إذا فتح الباب فجأة وسمح

لنا بالخروج إلى البراري في الخارج ؟! ما رأيكم أن نستلقي عراة ونمرغ أجسادنا بالتراب ، أن نمشي إلى البعيد لنصادف نهرا رقراقا نرمي بأجسادنا المحترقة فيه ونسبح حتى نهاية الدنيا ، وتحت الأشجار نتسامر ونضاجع إناثا ينتظرننا في الحقول ؟ أليست هذه لحظة لا تعوض من كل لحظات الحياة التي نعيشها ويعيشها غيرنا ؟

يضحك الرجال وهم يتناولون الأرز مع اللبن ، يهزون رؤوسهم ضاحكين من الصراحة المنفلشة التي يعبر بها سعيد عن أحلامه الداخلية وأحلامهم أيضا.

سعيد كان آنذاك في السنة الخامسة في كلية الطب ، يركب الموجة التي انتشرت تلك الفترة من أواخر السبعينات وأول ثمانينات القرن الماضي .

لم تكن ثمة أهمية لأي شيء في حياته هو وأصدقاؤه ، سوى استئجار شقة والسهر فيها ليلا لشرب العرق ، وكان يكفي مجرد أسبوعين من الدراسة قبل الامتحانات الفصلية الجامعية لكي يتقدم سعيد للاختبارات ويتمكن هو وبعض من أصدقائه المشابهين له من النجاح والانتقال إلى السنة التالية .

طبيعة سعيد غير المبالية ، والباحثة عن المتعة والسهر والارتجالات المزاجية المفاجئة ، بلا خطط أو ترتيبات ، لم تبعده عن الاندحار تحت وطأة حب حقيقي تقلب فيه على أمواج محرقة وصارع تلالا رملية وبكى ، فشل وحاول الانتحار مرات عديدة ، ثم عاد إلى عالم النوستالجيا ، ليستعيد بعضا من ذكرى حب لا يجيء ، ولا يتحقق .

أبدى إصرارا مناقضا لطبيعته اللامبالية على التمسك به حتى لو أدى ذلك إلى تخليه عن عمره كاملا .

كانت سمر التي أحبها محاطة بهالة ملائكية لا يستطيع مقاومتها حين ينظر إليها ، حتى أنه يشعر بإحساس عارم بالدونية تجاهها ، رغم أنه كان لا يفتقد إلى مواصفات متميزة من الذكاء والشخصية الجذابة والقدرات العالية على التحدث بلغة جميلة ومقنعة ، مع شيء من التحايل والكذب إذا لزم الأمر ، لكنه أحبها بشكل حقيقي .

أصبحت معظم جلسات تعاطي الكحول تنفيسا عن شكوى ، وتداعيات أحلام لا تنتهي ، يقبض فيها على الفراشة الطائرة أبدا ، الهاربة منه إلى عالمها البسيط ، واستعادة كاذبة لإمكانية أن يصل قلبه إليها، ويملك عالمها، لكنه كان ينهي معظم جلساته بتعاطي كميات من الكحول تكفي لقتل خمسة رجال ، وهو يمارس فعل النوستالجيا والحنين، وفي سريرته كان يدرك تماماً أنه كان يمارس انتحارا .

شك إخوتها بإمكانية إصلاحه ، وقناعتهم بتلاعبه وكذبه المستمر ، جعلتهم يحاولون إبعادها عنه ، وإقناعها بأنه شاب لا يصلح لها .

يئس سعيد من إمكانية تحقيق حلمه بالوصول إليها وابتعد ، لكنه لم يستطع أن يمنع انجراف قلبه المستمر نحوها ، بإصراره الذي لا يعرف اليأس ، بل يزيده رغبة في الحلم بها ، أو تحطيم نفسه ، حين يدرك مع مرور الزمن أنه يحاول عبثا ، لكنه لا ينسى . ولم تستطع الفتيات اللواتي كان يمثل ارتباطه بهن تمثيلا ، كخدعة تعويضية ، أن يحتللن مكانة سمر ، التي تحولت في نفسه إلى أسطورة تبعد دائما مع الشمس .

ورغم عدم إيمانه باليقينيات الثابتة ، إلا أنه صارع بعنف يقينا قارب أن يقضي عليه ، وهو استحالة وصوله إليها ، أصبحت لوحة جدارية

سحرية معلقة في أعلى برج من ذاكرته الحادة ، لكن المتعبة بتمسكه القسري .

عاش أشهرا طويلة معها ، يخاطبها ، ويتحرك وفق ما تمليه عليه في داخله ، ارتبط كل شيء يعيشه بها، حتى الأغنيات ، كان يسقطها حين يسمعها ، على حبه لها ، فتصبح كلمات الأغنيات موجهة لها ، وتخصها دون غيرها، لم تستطع الزنزانة إطفاء ذاكرته المتقدة تجاهها . وهو يمعن في المضي في ممر معتم طويل متعرج لا يدري إلى أين سيفضي ، ولا يهمه ذلك .

الصدفة التي جمعته في الزنزانة مع صديقه ماهر، كشفت لبعض الرجال عن قصته المخبوءة تلك . وكان المزاج سيد قراراته وتصرفاته في كل شيء داخل السجن . يستطيع السهر دون نوم ثلاث ليال متواصلة دون أن يغفو لحظة ، ثم ينام نهارا كاملا ، ويقرأ كتابا من العيار الثقيل في ليلة واحدة ، ثم يتوقف عن القراءة لشهر ، طاقاته فريدة لكنها تدمر نفسها لتتوالد طاقات أكثر فردية ووحشية .

يستيقظ أحيانا في الليل مذعورا ، ثم يعود لينام فتدور بينه وبين سمر حوارات طويلة مسموعة بالنسبة لنا، تناديه ويرد عليها ، ويضم يديه في نومه إلى صدره ، ويهذي بكلمات لا نفهم منها سوى اسمها ، ثم يبكي ويهمد في مكانه متابعا نوما هادئا .

في دفتر مذكراته الصغير ، قرأ صديقه المقرب ماهر بعض أسطر يقول فيها : أرتاد أماكن لم أرتدها في أيام الجامعة ، في ذروة الحب الصاخبة ، تحيطنا أنا وسمر المياه والعصافير ، ويهب علينا نسيم صيف له روائح الزيزفون وأزهار الليمون ، ذلك في الحلم ، لا أشتهي العودة إلى الخارج ، أرغب أن أبقى سجين تلك اللحظات والأحلام التي أعيش فيها الحقيقة ذاتها ، وأكتشف أن ما عشته في الخارج ، في الأيام الماضية ، لم يكن حقيقة ، بل كان ألما مستمرا ، وشكلا من أشكال التعذيب أما الآن ، فقد اكتشفت أن ما عشته وما يعيشه الآخرون سراب ، وليس حياة حقيقية ، الحقيقة هي في أحلام كهذه فقط . لأني فيها أعلو فوق الأرض الحارقة ، فوق ما تلمسه أيدينا فتفقد أصابعها ، طعم القبلة الحقيقي هو في الحلم وليس في الحياة العادية .

بين النجوم في أعلى السماء ، حيث تعلو العتمة المضاءة بقمر باهت تسبح فرح وميس ، فرحتين ، تتقارب منهما نجمتان تخاطبهما بأشعة نورانية وهما تضحكان بإحساس فريد بالخفة في الفضاء ، يطوف حولهما زوج عمة فرح ، العجوز الصوفي بردائه الأبيض ولحيته البيضاء ، يسورهما بكلمات جميلة لكنهما لا تفهمانها . تسبيحات وتراتيل من شعر كان

مخبأ في قبب البيوت القديمة والمساجد ، ومن البعيد تلوح ثلاث نجوم ترسم بحركتها إيقاعات في أثير السماء ، ينتشر منها نسيم يحيط الفضاء بروائح عطور وأحجار كريمة لا وجود لها على الأرض ، يلِّوح لهما إيبولا ، وسارة وعارف ، مغرقين في البعد في سماء لا ترحم حدودها الأفق التائه .

تصحو ميس من نومها في عتمة الغرفة وهي تسمع حركة خفيفة لفرح النائم في السرير بوداعة . تسرح في الأضواء الباهتة الآتية من خارج الغرفة ، بعد أن تتأقلم عيناها مع العتمة ، وحين تحدق في ظل الكتاب الذي تركته مساء على الطاولة الصغيرة ، تفكر بأعذار كثيرة لدون كيخوته على أحلامه ومحاربته لطواحين الهواء .

تفتح أمها الباب بهدوء وتدخل بقامة متعبة متجهة نحوها ، تمسح شعرها بيدين دافئتين ، هادئتين

ولا تصدر عنها أية كلمة ، ثم يستدير ظلها وتخرج من باب آخر ، وتبادلها أم فرح الهائمة في الجامع الكبير ، حديثا متقطعا طويلا وهي جالسة قبالتها تقشر الخضار على المقعد ، ثم تدخل المطبخ ولا تخرج منه . تنهض ميس وتشعل ضوء الغرفة ، تدور المكان باحثة عن أثر لأم فرح لكن الغرفة تبقى خالية إلا منها ومن ابنها الصغير .

تنوح كحمامة سقطت من على برج ، وترتمي على سريرها مستسلمة لطريق مفتوح يأخذها فيه الأرق إلى نهايات لا تعرفها .

" لا حاجة للحديث عن الأموات، لأنه ليس هناك من هو أكثر موتاً منهم. " تتذكر الشاعر غييفك .

***

" أخبرتهم ألا يغادروا البلد ، هؤلاء المجانين العاقين ." تقول أم باسم لميس بعد عودتها آخر النهار من عملها ، قالوا لي : إن الدنيا ضاقت بهم ، أولادي الثلاثة ، وأن الحل هو في الهجرة ، إلى أي بلد آخر ، هؤلاء المغفلون يظنون أنهم سيصلون فيجدون الدول الأخرى فاتحة ذراعيها لاستقبالهم وتأمين كل حاجاتهم ، هربوا ، واحد إلى اليونان عن طريق تركيا وآخر إلى هولندا ، والثالث إلى بلجيكا ، يعمل هناك حمالا لحزم الألبسة المستعملة التي يصدرونها إلى بلدنا وبلدان أخرى مثلنا . عمار نام في الحدائق ومحطات المترو في اليونان ، وتشرد حتى تعرف على امرأة ، لست أدري ما تعمل، وتزوجها ليحصل على إقامة . والآخران حصلا على لجوء هناك ، لا يتصلون بي أنا وأبوهم سوى في بعض الأوقات أو المناسبات المتباعدة ، ها نحن ذا نعيش هنا ونتدبر أمورنا ، انهدم جسدي حتى ربيتهم وصاروا شبابا ، ثم تركوني هكذا بلا مبالاة ، ورحلوا ، قالوا إنهم لو بقوا هنا سيموتون ولن

يستطيعوا الزواج أو تأسيس حياتهم ، لماذا يفكر كل هذا الجيل بهذه الطريقة ؟ هل أكيد أن هناك أحسن من هنا ؟! ترد ميس :

- الحياة أصبحت صعبة هنا ، لكن لا أظن أنها هناك سهلة كما يتصورون . سيرجعون ، ثقي بذلك . تجيبها أم باسم بنبرة متألمة :

- متى ، بعد أن أموت ؟!... سيأتون لزيارة قبري؟!...

ينال التعب من ميس ، تترك أم باسم وتمضي إلى منزلها ، ذهبت إلى بيت حياة ، وجدتها تلعب مع طفلها فرح الذي بدأ يكبر وينطق كلمات مفهومة . وبدا عليه تآلف شديد مع المرأة التي تلازمه معظم النهار ، أكثر منها ، لاح لها أن أسلوب حياة في العيش بدأ يتغير ، لم يعد يزورها أحد ، وانصبت اهتماماتها في الآونة الأخيرة على التسلية بمشاهدة الأفلام السينمائية حين يكون الطفل نائما . جلستا على الأريكة تشربان القهوة ، بدت على حياة تعابير الارتباك وبدت نظراتها توحي وكأنها تهم بسرد خبر ما . سألتها ميس :

- كيف تعيشين ؟!... ردت حياة :

- حالي تغيرت ، كانت الفترة الماضية كابوسا رهيبا ، أشعر بالخجل من تصرفاتي الماضية ، لم أعرف كيف سارت الأمور على ذلك النحو ، لكن

صدقيني أن هذا ... وأشارت بأصبعها على الصورة الموضوعة على ظهر التلفزيون، هذا الكائن كان سبب تعاستي . سألت ميس :

- من يكون ؟!...

- خالي ، ردت ميس بلهجة مستغربة قبل أن تعرف شيئا:

- إذا كان هو سبب تعاستك ، لماذا تضعين صورته على التلفزيون إذن ؟! ... ارتبكت حياة ثم أباحت لها بالسر :

- لأني أحبه ، لا أستطيع نسيانه .

- من ؟! أجابت حياة :

- إنه خالي ، هو الذي ..... انهمرت الدموع بهدوء على عينيها .

أصاب ميس الذهول ، لم تصدق ما سمعت :

- ماذا ؟ خالك ؟!!!

- نعم ، أحبني وكان يوشك على الموت إذا لم يرني ....

- هذا سفاح ، كيف استطاع ذلك ؟

- لست أدري ، لم يكن يستطيع السيطرة على نفسه . وقعت أنا أيضا في حبه ، لا أستطيع البوح بهذا لأحد .

وضعت حياة رأسها على مسند الأريكة فوق كفيها وبكت .

سألتها ميس :
- والآن ، ماذا تنوين أن تفعلي ؟!...
- لا شيء ، سئمت حياة الإباحة ، ولم أعد أتقبلها ، أتصدقين أن حياتي الجديدة مع ابنك فرح علمتني الكثير ، وبدأت أعيد حساباتي بأشياء كثيرة ؟!...
- ما هو مصدر دخلك الآن ، كيف تعيشين.؟!....
- كانت لدي بعض النقود ، وفرتها في الفترة السابقة ، وقد بدأت تنفذ .
- ماذا ستفعلين إذن ؟..
- سأحاول أن أعمل .
عادت ميس إلى منزلها متعبة ، تذكرت أن اليوم التالي هو موعد زيارة الموتى ، الخامس عشر من شعبان ، أي قبر ستزور ؟ حتى أحياؤها أموات لا تراهم ، في أمكنة مجهولة.
قبل أن تمضي إلى عملها ذهبت إلى المقبرة التي كان يؤمها الناس ، يقرؤون الآيات على موتاهم ويضعون الورود والأعواد الخضراء .
توجهت إلى قبر فرح ، لم تجده في مكانه الذي كانت تعرفه جيدا ، ظلت تدور من قبر إلى آخر ولم تجد شيئا ، وجدت العمة تقرأ القرآن على قبر الشيخ العجوز ، حيتها وجلست بجانبها .
سألتها :

- خالة ، لم أجد قبر فرح ، أضعته ، هل تعرفين مكانه ؟

أجابت العمة بهدوء بعد أن قطعت قراءتها :

- إنها هنا ، أمامك ، في قبر زوجي نفسه ، قررت أن أدفنها معه ، لأنها كانت تحبه ، كما أنه أصبح شديد الحزن والصمت بعد موتها هي ، لم يحزن هكذا حتى على ابنته من زوجته السابقة حين ماتت بمرض السل ، قالت لي فرح إنها تشعر براحة ملائكية حين تراه أو تجلس بقربه ، وكانت تداعب لحيته البيضاء أحيانا .

هما روحان من ضوء . اقرئي لهما شيئا يا ابنتي .

بدأت حياة ترافق ميس إلى عملها ، كي تتسلم بعض العمارات لغسل أدراجها ، وتتفق مع بعض الشقق لتنظيفها كل أسبوع .

أما فرح فقد كان يلازمهما بعد أن صار يستطيع المشي ، وحين تعودان يبدو لهما حي السيوف شارعا ميتا ، كأنه حمل عبء الزمن ، وتلقى ضربات مؤلمة لا تحصى . حتى الشمس الغاربة هناك بدت واهية تنشر أشعتها بإيقاع حزين، واختفت جلسات النساء على عتبات البيوت لتبادل الحديث وشرب القهوة ، لاحظت الاثنتان حمامات بيضاء تلوح على شرفة إيبولا ، تصطدم صدورها بالشباك الخشبي المغبر ، كأنها مربوطة بروح ما

في الداخل ، وانتشر قوس ملون امتد من النافذة حتى شرفة سارة وعارف ، حيث كان يتقطع في بعض المنعطفات كي يشق طريقه إلى بوابة الجنة .

- أشتهي شرب البيرة . قالت حياة .

- وأنا أيضا ، للبيرة طعم آخر في غرفة إيبولا ، سنشربها ونستمع إلى إيقاع إيفا نجليس أو بيتر غابرييل. ما رأيك :

- لا بأس ، تجيب حياة .

سنلقي لومنا، نحن الاثنتين على كاهن المعبد، لأنه خبأ أقمارنا بين أعواد القصب النائية. تردد ميس وهما متجهتان للغرفة.

***

غطى الثلج الشوارع في حي السيوف ، وسجلت المستشفيات أعدادا كبيرة من الزوار المرضى الذي انزلقوا على الأرض وكسرت يدهم أو ساقهم .

انقطعت الحياة في الخارج ، والتف الناس حول المواقد ، حيث لازموا منازلهم ، سوى بعض المارة العابرين ، أو السكارى في الليل الذين كانوا يغنون لليل والبياض الناصع ، حمامة جمدها الصقيع على طرف نافذة إيبولا ، سقطت على الحافة الحجرية وعنقها ملتو كحزن لم يكتمل .

كانت ميس تكثر من الأغطية التي تمدها على جسد فرح النائم كي تمنع عنه البرد ، تحولت الدنيا في الشوارع إلى عالم أبيض ، حتى شرفة سارة بدت بيضاء أكثر من بياض الثلج ، في أرجاء الشارع المقابل لها . أصاب ميس وهي تزاول عملها برد لم تذقه منذ فترة بعيدة ، حين انتشرت في يديها وقدميها عضاته الحمراء ، بقيت تكتب قصائد تخاطب فيها إيبولا ،ولم تتوقف عن الاستماع إلى الأوديسة وإيفا نجليس الذين يزودانها بقليل من الدفء ، انقطع المازوت لأسباب غير معروفة عن الناس ، وصار البائعون العابرون يستغلون ندرته ببيعه بسعر أعلى ، لم يفهم الناس لماذا تنقطع الكهرباء حين يشتد الحر أو البرد ، أو لماذا ينقطع الماء حين تشتد الكوليرا .

ثم يأمرنا مدرب الفتوة في المدرسة بإلقاء التحية العسكرية بقامة ناهضة مشدودة ورأس مرفوع ، كي لا نعاقب بالزحف فوق بركة الماء .

يقول سهيل ، الولد الذي جاء مع أهله واشتروا دار أبي عباس من أقربائه ، وهو طالب في المرحلة الثانوية الأولى .

يرتاد المكان شبح سيدة تعدت الخمسين قرب منزل ميس مساء ، ترتدي وشاحا وعباءة غامقة ،

تروح وتجيء قرب الأضواء الباهتة لمنازل الحي ، ثم تختفي عند اقتراب الصباح.

أخبرت أم باسم ميس أن المرأة التي تجول حول منزلها تشبه أم فرح إلى حد بعيد ، لكن ميس لم تعر كلامها اهتماما ، بعد أن فقدت الأمل باستعادتها بعد أن شردت في الطرقات ولم تعد تسمع عنها أي خبر .

كانت ميس تدرك أن أصحاب التدوين حين يدونون غياب شخص ما ، فإنه لا يعود ، مهما طالت الأيام . لهذا تابعت الدوران حول أيامها في طرقات تشبه الغيم ، وكانت في زحمة الثلج المترامي ، تبحث عن عنوان آخر لحكاية حي السيوف .

يهطل المطر لينهي فصل الثلج البارد ، ثم تصحو السماء ليطلع قمر على ليل الحي والمدينة المسحورة بيد خفية ، يعرفها شباب مغيبون . أخبارهم منشورة على حبل غسيل أمهاتهم اللواتي يصلين كي يعود الغائبون . تغفو عمة فرح في دارها المبنية فوق المقبرة، في قبو أكثر دفئا ، وهي تقضي معظم أوقاتها تحاور ذكريات غابت منذ سنين ، بعد أن جمد البرد دمها ، سمحت لجارها بوضع بعض خرافه في غرفة قريبة من صحن الدار مقابل أن يزودها ببعض المازوت والطعام .

ينتشر الجلد المتموت في ظهرها وجسدها ، ويزداد شحوب وجهها .

يزورها الشيخ العجوز ، زوجها ، بملاءة بيضاء ، هادئا ، وديعا ، يطلب منها أن تغادر المكان وتصحبه ، لأن مكانه أكثر أمانا لها .

توافقه ويخرجان كملاكين طائرين ويستقران في زاوية معتمة من أرض مسورة بالورود الذابلة التي تمتد من بداية الوهدة التي يصعدها الناس لبلوغ المقبرة الصامتة ، تستقر معه في حفرة صغيرة تملؤها النجوم ، وتستلقي فيها فتاة صغيرة لها جناحا طائر يضيئان المكان بألوان الطيف.

حكت ميس لحياة الأضواء التي وجدتها تغمر غرف المنزل القديم للعمة التي غادرته بكل الرضا ، حيث خرجت منه قبل أن ينهدم جدار القبو الذي أمضت فيه بعض أيام الشتاء المثلج .

وحكت لها كم بكتها العانسات الثلاث في المنزل المجاور ، اللواتي يعشن على ضم الخرز وتطريز الفساتين الخاصة بسهرات الأعراس ، مقابل بعض المال الذي لا يكفي لتدفئة المنزل وتناول الخبز فقط .

لم تكتف ميس بمشاهدة معالم المنزل القديم ، بل تصفحت الكتب الموضوعة في خزائن حجرية جدارية ، أحضرت منها بعض الكتب الصوفية،

حيث كانت في زمن سابق ، تشكل المداد الروحي للعجوز الذي رحل إلى قصره الآمن . وترك السطور القديمة في كتبه حائرة ، تسبح في عتمة الدار ، وتفتقد ليديه الشاحبتين اللتين كانتا تحملها لتمسح عنها الغبار ثم تعيدها إلى مكانها بمحبة ووداعة .

وجد فؤاد ، الأخ الأكبر لسهيل نفسه مخفورا برجال الشرطة الذين أخذوه بتهمة الرشوة . كان يعمل مهندسا في أحد مرافق الدولة .

كثرت استدعاءات الأمن للمهندسين في تلك الآونة للتحقيق معهم في أمور تتعلق بالمسألة ذاتها ، أما المتورطون منهم أو الخائفون ، فقد تركوا أسرهم وتواروا عن الأنظار . رفع أحد المتعاملين مع تجار المخالفات دعوى بحقه بحجة تقاضي أجر غير واجب، هكذا تسمى قانونيا . بعد أن غادر المحكمة مربوطا بالسلاسل من يديه وقدميه ، تم ترحيله مع مجموعة موقوفين آخرين بجرائم مختلفة إلى السجن لقضاء فترة ريثما يبت في أمر الدعوى ، ونسيه القاضي هناك لفترة طويلة . وضعوه في المرحلة الأولى في عنبر الجرائم المختلطة ، كان عليه أن يشتري مكان نومه ، يدفع مقابل ذلك مبلغا كل أسبوع ، لئلا ينام في الممر المفضي إلى المراحيض والحمامات .

تاجر الأسلحة هناك يبيع الدخان الأجنبي المهرب ، ويتقاضى من الداخلين الجدد إتاوة ، بالاتفاق مع شرطة السجن . استطاع بعد فترة أن يتعرف إلى شاب مقبول ، مهندس كهرباء ، دخل بتهمة التحرش بخادمة سيريلانكية لتاجر كبير في المدينة .

كان تجار الأسلحة ، والمسجونون بتهمة الاغتصاب أو الاعتداء على الأولاد القصر جنسيا ، يحتلون مكانة مهمة في عنبر السجن الكبير ، رئيسهم يستلم مفتاحا احتياطيا ، لباب العنبر ، بالاتفاق مع الشرطة المناوبة .

شاهد مجموعات، كل منها يجتمع في مكان ثابت ، يتبادلون الحديث بأعصاب مخدرة ، وحركات متباطئة ، يجلسون ذاهلين لفترات تقارب الساعتين أو أكثر .

استطاع بعد فترة قصيرة أن يكتشف موزع الحبوب المخدرة في عنبر السجن .أعطى أحدهم حبة لرجل في الخمسين ، كانت نظراته تشي بخبث غير مسبوق ، يحدق ببسمة خفيفة لا تخفي دهاءه ، وميله الدائم لمتابعة حركة الناس ، لم يكن الشاب الذي يمشي على عكاز واحد قد تجاوز الثامنة عشرة لكنه كان شاذا جنسيا ، دخل هو والرجل الخمسيني إلى حمامات العنبر ، ثم خرجا بعد فترة وقد انهوا عملهم على مرأى من الشبان الذين ينظر بعضهم

إليهم بلا مبالاة ، كأن نشاطات كهذه هي أمر عادي في حياتهم اليومية ، والبعض الآخر يبتسم بخبث . قبل دخولهم العنبر نبهه أحد الذين رافقوه إلى السجن في البهو السفلي الذي يتم فيه توزيعهم على الأجنحة أن الرجل الذي ظنه شرطيا يتحرك بحرية تامة ، ليس شرطيا بل محكوماً مؤبدا يدور في أرجاء القاعة لالتقاط يافع أو ولد تحت سن الرشد لتقديمه بعد دخوله إلى أحد الموقوفين المغرمين بالغلمان .

الكل هناك يبيع ويشتري ، ويتاجر بالسلع التي يحتاجها المساجين . أما الذين دخلوا بتهمة السكر ، فهم ينامون طوال النهار ريثما يأتيهم إخلاء السبيل . وفي الساعة الثالثة صباحا يدخل شرطي أو اثنان ويلعبون مع السجناء القمار بأدوات وأساليب بسيطة كرمي القطعة النقدية المعدنية " طرة ولا نقش " ويكومون النقود التي يربحونها .

أحس فؤاد أنه خرج إلى دنيا مليئة بالحرية ، وأنه ولد من جديد ، حين أتى إخلاء سبيله وقام بإجراءات الخروج . ظل لشهر يسرح في الفضاء صامتا ، مذهولا ، قبل أن يعود إلى حياته الطبيعية .

لظل الرواية يوم يخيم فيه على حي السيوف ،يبدأ الناس فيه بممارسة نشاطات لها طبيعة مختلفة ، يترصدون النجوم، ويمعنون النظر في نافذة غرفة

إيبولا ، وتكثر فيها الأحاديث بين النسوة عن الشرفة الخالية، شرفة سارة وعارف ، وينتشر طقس من التخمينات والتبصير ويفتح باب الأساطير ، وغالبا ما تمتلك النساء في الحي القدرة الأكبر على نسج الحكايات والتأويلات ، بمخيلات لها القدرة على ابتكار الغرائب وغير المألوف .

بينما يروح الرجال ويجيئون أو يلعبون الطاولة قرب عتبات بيوتهم.

يلوح لأم باسم أن النافذة انفتحت ومد إيبولا رأسه منها ملوحا ثم أغلق النافذة ، تقسم الأيمان للنسوة اللواتي ينظرن إليها باستغراب غير مصدقات، وتراه فاطمة التي باتت لا تغيب كثيرا عن منزلها ، يتجول ليلا ، في عمق الشوارع المعتمة الباردة ، بمعطف أسود وهو يحمل حقيبة صغيرة ويداعب ابنه الصغير قرب عتبة مدخل عمارته . أما المرأة المهجورة الوحيدة أم كريم فتراه يقرأ في منتصف الليل حكاية لأولاد يتحومون حوله ، لغتها غير مفهومة بالنسبة لها ، ثم يختفي خلف جدران العمارة ، ولا ترى أثرا للأولاد الذين كانوا يتحومون حوله .

أساطيرهم ترصد النجوم ، كي تعيد ترتيب الزمن في الحي ، وتستعيد ذكريات فائتة ، تهندس بها الشوارع بين البيوت بلحظات نوستالجيا تعيد الغريق إلى فراشه ، والميت إلى شرب الشاي على

الشرفة ،وصاحب الروايات إلى غرفته، حيث يجلس إلى طاولته ويكتب أسطرا بالماء عن حياة لم يعد سواه الحقيقة الملموسة الوحيدة فيها .

فجأة لم تعد تخرج فاطمة من منزلها الذي كان يرتاده الكثيرون .

بقيت وحيدة فيه ، تصلها إليه حاجياتها الخاصة بالأكل والشرب ، من أبي باسم ، وغابت في ردهات المنزل فترة لم يحسب لها الجميع .

أكدت النساء مجتمعات أنها صارت تعاني من مرض نفسي تغالب فيه رغبة قسرية في تنظيف نفسها ، وجلي بلاط منزلها بالصابون الثمين ، والاستحمام عشرات المرات لكي تحصل في الليل وهي منهكة على الإحساس المرضي بالطمأنينة والراحة بأنها بلغت طهرانية معقولة ، لا يرضاها عقلها إلا بعد جهد يدوم أياما وهي تكابد الأفعال القسرية في التطهر بالماء ، ثم خمد صوتها ولم تعد تخرج خارج عتبة بيتها الصامت .

تقشر جلد يديها وأقدامها وجسدها من الماء الذي سكبته بجنون في حمامات أخذتها بتواتر لا يفصل بين الواحدة والأخرى أكثر من نصف ساعة ، مسحت خلالها جسدها بالصابون والمنظفات بصورة لا رحمة فيها ، كي تغسل الدنس الذي اصابه ، في الفترات الماضية ، ثم أغلقت باب

منزلها ، صامتة ، دون أن تخرج منه ولو لدقيقة واحدة ، صار بيتها بيت الغبار والصمت المترقب ، بينما صارت حياة، العائدة إلى الدنيا الحقيقية مع ميس فوق أدراج العمل الذي لا ينتهي ، تنجذب إلى المهندس صاحب الشخصية الجذابة فؤاد ، الذي شعر بصورة مماثلة بالانجذاب المفاجئ لأنوثتها الجميلة التي تعرف كيف تجعلها مشتعلة بالشوق والجاذبية الأنثوية ، بأساليب لا يدرك سرها سواها ، حيث تعلمت في الأيام السابقة كيف تشعل شوق الرجال العابرين ، أما فؤاد، وبفعل عابر لا توقع لديها عن امتداداته ، تطورت محاولاتها لجذبه إلى حب لا يقاوم من طرفها ولا حدود له ، لأنها انجذبت إلى الكاريزما التي يملكها ، مثلما انجذب هو إلى السحر الأنثوي الذي كان لديها خبرة هائلة في جعله أكثر تأثيرا من السحر الأنثوي بشكله الصرف ، دون مبالغة أو تزويق .

بهذه الصورة التحما كليهما في اتحاد حب ملتهب لا يعرف حدودا ، وشعر هو ، صاحب الخبرة الضعيفة ، مقارنة بخبرتها العملية ، بالذوبان في جسد لا قدرة له على مقاومة طاقاته الجاذبة ، ضاع في ردهات الجسد الأنثوي الذي لا يقاوم ، وأمضى وقتا طويلا في غزل لا ينتهي مع الدلتا الساحر الذي تخبئه بين ساقيها ، ثم التحم برغبة لم تقاومها هي

ولم يستطع هو أن يجد مخرجا منها ، فتدفق فيها ، حارا ، منسابا ، لزجا ، صافيا ، كي يتحقق بذلك حلم انتظرته طويلا ، برغبة الأنثى الطاغية ، في انتزاع ما تريد من الرجل ، وهو يفعل ذلك بكامل الرضا والإذعان ، حملت حياة كائنا في بطنها ، بقيت تعيش معه طيلة أيام عملها وأيام حملها به ، وحررت فؤاد من الخوف الذي ألم به من الحمل المفاجئ ، أكدت له أنها المسؤولة الوحيدة عنه ، ولا داعي أن يقلق بسبب ذلك الحمل ، لأنها هي المسؤولة عن متابعته وتربيته ، وأنه مهما وصل مستوى إدراكه وحساسيته لم يفهم درجة الخسارات التي وصلت إليها ، لهذا رجته أن يتركها تحافظ عليه ، وتفرح فيه ، دون تدخل سيء منه يفسد عليها سعادتها التي شعرت بها لأول مرة بعد سنوات الضياع التي عاشتها ، وان يكون إلى درجة من الحب بحيث يتركها تعيش اللحظات الحلوة مع طفل ، هو نتاج حب حقيقي قد يعوضها عن أشياء كثيرة ، بهذه الكلمات أذعن فؤاد لرجاء حياة وتركها تدبر شؤونها ، إلا أن ذلك لم يعفه من القلق الذي ألم به لتسعة شهور .

ويكون لحي السيوف ، مصير مكتوب لمكان لا يعبأ بالأعراف والدين ، وسفاح المحارم ، والحب المحظور ، لهذا كثرت الأحاديث عن أن النحس

الذي يصيب الحي ليس إلا نتيجة مؤكدة للانتهاكات التي يرتكبها ذووه ، دون احترام للأخلاق والدين والقيم العليا . خيم ظلام ثقيل على

نفوس الناس وهم ساكنون ، لا يخرجون من بيوتهم التي ملأها الغبار والصمت المترقب ، في الليلة التي وضعت فيها حياة سرا طفلتها ، انتشر الأفق الأحمر في كل الاتجاهات، على نحو غير مسبوق ، وكثرت الأقواس التي امتدت في الحي من نافذة إيبولا مرورا بشرفة سارة ، وصولا إلى قبر فرح والعجوز زوج العمة ، حيث ينتهي مطافه قرب سور القلعة والجامع الكبير وهديل الحمام في المنافذ الصغيرة للمساجد القديمة .

أعلن فؤاد زواجه بعد أن رفض الفكرة المجنونة لحياة التي عرضت نفسها لأحاديث الناس والانتقادات الحادة . دخل حوارات طويلة وخلافات مع أهله الذين رفضوا فكرة زواجه بسبب سمعة حياة وماضيها السيئ ، لكنه استطاع في النهاية أن يتخذ قرارا ثابتا وأجبر أهله على الصمت .

- من قال إن حياة فتاة سيئة السمعة ، بالعكس تماما هي بشكل ما ضحية حقيقية . لانتهاكات وفوضى الحياة التي لا حدود لها . قالت ميس مخاطبة فؤاد في أحد الأيام ، والقرار الحقيقي في النهاية يعود لمعرفتك الشخصية بطبيعتها وقناعتك

بجوهرها، إنها طفلة كبيرة ، محبة ، ومحبوبة، لم تفكر يوما في إيذاء الناس ، أحيانا يدفعك سلوك ما شنيع وغير عادل إلى التحول لذئب ، لا لشيء إلا ردا على كرامتك المستباحة . إنهم الآخرون وجحيمهم ولسنا نحن في أغلب الأحيان ، أرجو ألا تتدم على قرارك هذا وتتراجع ، فأنت تتصرف تصرف الرجل الحر .

***

" كأن حياتنا محمولة على قرون الماعز الجبلي ، يهز قرونه بعنف كلما تعثر بوهدة وهو يصعد الجبال الوعرة ، يشق الماء ويخلطه بالطحلب ، وهو يعلو إلى طبقات الجحيم ، ولا تستقيم الدنيا إلا على عظام من رحلوا ، واستقروا تحت الأرض ، لكن أكثر ملامة من الندم الذي يأكل أرواحنا ونحن نتخبط في الفوضى مسلمين بالقدر – الزلزال الكبير ، الذي يشق مدينتنا إلى فالق يقطع أوراق الأعشاب البرية والزهور التي رفضت الانتماء لنا ، نحن الذين سلمنا بكل شيء ، وسلمنا حياتنا للفوضى دون اعتراض ، سيتساقط الحجر فوق رؤوسنا جميعا وتنهدم جدران البيوت على صدورنا ، تطيح بالقاتل والقتيل ، فوضى وخراب جدير بهذا الخراب الكبير

، الذي يجعلنا نتآكل كالقش في النار ، وينشق الأفق عن خط أحمر يرسم لنا حجم الدمار الذين نحن وحدنا الجديرون به . حتى تنغلق الحكاية على نفسها ".

تغني المرأة العمياء على طرف الرصيف ، المرأة التي ليس لها مكان محدد تقيم فيه ، لكنها الأكثر حظا في الحصول على الطعام الذي تمنحها إياه نساء الحي ، والأكثر حظوة بحمامات تواظب كل النسوة على إجرائها لها لغسل الغبار والصدأ عن توحيدة ، العمياء ذات الأحاديث الغريبة ، والقدرات الكبيرة على رؤية الأشياء الآتية . تنمو رؤيتها مع اتساع رقعة العمى الذي يكبر في الأفق الممتد أمامها، ومع تقدم الزمن الصامت على حي السيوف الذي يدور على قرون الماعز العالية وهو يصعد جبل المحنة الشاهق.

قبل اقتراب موعد ولادة حياة ، هيأت نفسها ببعض الأشياء الضرورية للطفل القادم ، وهي سعيدة بحملها ، رغم تعبها الشديد . تلد طفلها ليلا في جو شديد الرياح والغبار، تساعدها ميس وقابلة خبيرة تقطن في شارع قريب ، وأم فؤاد التي تجوب الغرفة وهي تدعو لها ، تهمس حياة لميس صباحا:

- ميس ، أحضري لي سارة ، سأرضعها . تبتسم ميس فرحة برغبة حياة في تسمية مولودتها الجديدة، بالاسم الذي نطقته .

- هل ستسمينها سارة ؟!

- نعم ، قررت ذلك منذ بداية حملي . تحمل ميس الطفلة وتقربها من صدر حياة . تبتسم حياة وتغمرها فرحة أمومية وهي ترى الطفلة تتناول حلمة ثديها وعيناها شبه مغمضتين .

يمد إيبولا رأسه من النافذة ليرى طفله فرح تجره أمه وهما يعبران الخط الذي تنشره الشمس على طرف الرصيف، يبتسم ويسرح بعينيه الواسعتين على طول الشارع الممتد من دكان أبي باسم حتى الطريق الترابي الذي يحاذي شرفة سارة وعارف ، تعود فراشات مضيئة للطيران خلف المصباح المنطفئ الذي يتدلى من سقف الشرفة ، ويتطاول قوس نوراني يشق الجدار الأصفر ، ليرسم ما يشبه نرجسه صفراء وزرقاء كقوس القلب ، يتقطع على شفرات الباب الخشبي الذي تقشر طلاؤه ، ثم يغلق النافذة ويختفي.

تشم توحيدة رائحته وتشير لميس إلى النافذة خلفها، تلتفت ميس فترى النافذة موصدة ، يهب نسيم محمل بروائح تحمل ميس على المضي

مسافة طويلة مع صغيرها ، دون أن تدري ، ثم تنتبه فجأة لنفسها ، فتستدير راجعة إلى منزلها .

تصل رسائل متتابعة إلى أم باسم من أبنائها في بلجيكا وهولندا ورسالة من ابنها عمار الذي غادر اليونان مع زوجته الفرنسية إلى أمريكا ، يخبرونها فيها أن يتعرضون لمضايقات وتفتيش دائم لأن الأوروبيين والأميركيين أصبحوا يخافون ويضمونهم إلى قائمة الإرهابيين المحتملين ، وأن طائرة متجهة إلى هولندا أوقفت رحلتها بسبب وجود صديقهم المسيحي غسان ضمن قائمة المسافرين على متنها . تبصق أم باسم على الرسالة وهي تقول :

- تفو عليكم ، أولاد حرام عاقون ، قلت لكم ألا تسافروا إلى تلك البلدان الغريبة البعيدة ، ادفعوا الآن ثمن مغامراتكم وعنادكم .

وتطوي الرسالة وتبكي مسلمة إياها لأبي باسم الذي قطع الأمل بعودتهم جميعا .

تذكر إيبولا الأيام التي كان يمضي فيها مع أمه لزيارة جدته ، أو ضريح ولي من أولياء الله ، وعادت إلى ذاكرته يد أمه وهي تمتد لتعطي المحتاجين بعض النقود القليلة ، أو تجلس لتستمع

إلى شكوى امرأة تجلس على الرصيف وتحكي قصة أغرب من خرافة .

كانت أمه لا تخرج في زيارة إلا كل شهرين أو أكثر ، ولا تبدل جواربها الأنثوية سوى مرتين في السنة ، بسبب فقر أبيه الذي جعل من أمه امرأة صبورة قانعة . يذكر حتى الآن كيف كان يغار عليها من نظرات الشبان الذين يطيلون النظر إليها بوقاحة ، فيشد يد أمه طالبا منها الإسراع لصعود الباص الذي سيقلهما إلى ضريح الولي ، أو إلى بيت جده الذي سيستمتع فيه بالجلوس على شرفة واسعة، لغروب الشمس فيها طعم آخر ، مع رائحة الأزهار والنباتات الخضراء التي تنبعث من البستان المجاور الذي يمتد إلى مدخل حلب الغربي .

تذكر ذلك في اللحظة التي نادى عليه الحراس يأمرونه بالخروج ، أمام ذهول زملائه في الزنزانة . حين دخل الغرفة، وجد ضابطا قاسي الملامح ، لا يستطيع أن يخفي ضجره ومله من الأيام الرتيبة المتعاقبة التي يقضيها في السجن ، وقف أمامه صامتا ينتظر أن يسأله سؤالا ما ، تحرك المحقق وقال بلهجة صارمة مفتعلة :

- أين الرواية يا صاحب الأسرار ؟!...

لم يجب إيبولا ، كرر الضابط عدة مرات ، لكن إيبولا رد بكلمة واحدة :

- أي رواية تقصد ؟!....

ثم انهال عليه بالضرب والركلات التي لا تحدد هدفا معينا في جسمه ، انهار ايبولا على الأرض بعد فصل طويل من الضرب العنيف حتى فقد الوعي .

عاد إلى غرفة الأصدقاء متعبا ، محمولا على أذرع ثلاثة رجال ، رموه على السرير ، ومضوا ، نهض زملاؤه خائفين للاطمئنان عليه ورشو ماء على وجهه، ظل إيبولا غائبا عن الوعي حتى الصباح .

حين صحا في صباح اليوم التالي عاد فتذكر أمه ذات الجوارب الممزقة وهي تنحني لتشتري له عصيرا صناعيا أصفر حامض الطعم ، ورآها تضرب الدلو في بئر الولي وهي تتلو دعاءاتها ، ورجاءاتها كي يتحقق لها ما تريد . لم يستطع أن يتذكر ما كانت تقول ، لأنه كان كلاما يشبه توسلات جميع النسوة حول أمه ، أصوات نسائية تعلو وتهبط لا يفهم منها شيء .

تذكر الشجرة التي أشارت إليها بأصبعها قبل أن تفيض روحها ، وهي تنظر إليه ، كأنها كانت تودع لديه أمانة تخصه وحده للعناية بها : " تلك الشجرة هي أنا ، لا تغمض عينيك عنها " . أصبحت الشجرة هاجس إيبولا الذي لا يزول، بعد وفاة أمه في عشية ذلك المساء ، حين حاول استدراجها يائسا

إلى الصحو لكنها غالبت نعاسا ثقيلا ، ومشت معه إلى منتصف جسر الروح ، ثم أغمضت عينيها .

ذهبت كما يذهب في المرء عندليب روحه القريب، حين يهجر الطريق التي تفضي إلى ساعات الصباح ولحظات المغيب عندما كان الجميع يتحلقون لشرب القهوة ، وتذكر أشياء تخص أرواحهم.

اجتمعت النسوة في حي التراب ، لاستقبال سعيد وهران الذي خرج من السجن مضرجا بالصمت حينا، والعويل حينا آخر .

انهالت عليه ، على غير عادته ، رغبات غريبة ، لم يعهدها القريبون منه فيه يوما ، صمت يتلوه مطر، وغيوم داكنة من ذكريات الحب الذي لم يعد له تعريف في ذاكرة الأحياء من حوله ، لكنه كان حاضرا فيه ، ذاكرته مطر يتلوه صمت ، وصمت يتلوه حنين لبكاء لا يتوقف ،ظل ثلاثة أيام يهيم في شوارع الحي ، باحثا عن ذكرى أضاعها ، وسأل أسئلة غامضة للرجال المتفحصين والنساء اللواتي يخفن ولعه بالكحول ، ولم يجد جوابا أكثر أهمية وراحة لنفسه من الأجوبة التي تختزنها ذاكرته عن سمر وأهلها . قرر سعيد بعد فترة لم تطل الغياب الكامل عن المدينة ، حيث وصلت أخباره بعد شهور أنه غادر البلد إلى ألمانيا لمتابعة الاختصاص .

وحدها أمه كانت تعرف جيدا أنه ليس ذلك الشخص الذي يطوي صفحة ذكرياته وتفاصيل السنين الماضية حين يترك البلد .

***

البلد صفحة معتمة الآن ، البلد قسا علينا جميعا، في أيامنا الأولى ، وفي الأيام التي نقترب فيها من سن النبوة ، البلد يخفي فينا كل شيء ، ويشرب ماء روحنا ، يمزق الصور الجماعية لطفولتنا، ونحن نشرب الماء من النبع العالي، ويرمينا في منتصف الجسر المقطوع ، حيث لا يمكن أن نتابع في أي اتجاه . لهذا نجتمع الآن كي نلملم أوراقنا صامتين .

يقرأ إيبولا رسالة صغيرة تركها سعيد على سريره في السجن . للأصدقاء . تصلهم الكلمات النائحة كبداية تطالب الجميع أن يكملوا كلماتها القليلة بحكاية طويلة ، وشكوى تبوح بالأيام التي كتبت فيها ذكرى الألم على لوح من جليد .

في الصباح الباكر ، حين أشعلت أصوات العصافير في الأصدقاء المستيقظين بلا أمل ، بأصواتها الناعمة، ضرورة التفكير في الجماليات الصغيرة في الخارج، الخارج الذي يحلمون به مؤرقين في نومهم وفي يقظتهم، الخارج البعيد ،

والحلم الذي يمارسونه طويلا من مسافات شاسعة، يتنقلون بأرواحهم بين الداخل والخارج دون الاستقرار في مكان حقيقي .

يتخيلون بحرا يتدفق موجه من النوافذ الصغيرة المرتفعة ويغمر الزنزانات ، فيركبون الموج الأخضر على أجنحة تشبه أجنحة الفراشات ، ويتمرغون في التراب قرب ورد شقائق النعمان وزهرات البابونج البيضاء والصفراء .

لكنهم ، بعد رحلتهم في فضاء الخارج الملون،يرتمون على أسرتهم متعبين ، محبطين ، يحضرون الماء وإبريق الشاي خلسة ، كي لا يراهم الحارس سليمان ، لصنع بعض الكؤوس التي أصبح الاستمتاع بها حلما في منتصف الليل .

- علينا أن نكمل سطور رسالة سعيد ، في سطورها نحن ، وفي سطورها غمغماتنا النائحة ، أريد أن أعود إلى بيتنا ، أريد رؤية حديقة الدار .

يقول ماهر وهو يستلقي مغطيا عينيه بذراعه .

وعلى الطرف الآخر يخاطب مروان في نومه زوجته وأولاده وهو يغمغم كلمات غير مفهومة .

في حي التراب يسكن خالد ، الأخ الأكبر لسعيد، مع زوجته وأولاده الذي أصبحوا شبانا وفتيات في الجامعة .

كانت بيروت الزنبقة الجميلة التي قضى فيها عشرين عاما كرجل قيادي في منظمة التحرير ، وخاض معارك اجتياح عام 82 ، ثم عاد إلى حلب منهكا ، ظل أكثر من أسبوع يحاول انتزاع جزمته العسكرية التي التصقت بأقدامه بعد حصار دام خمسة وثمانين يوما .

أصبح بعدها صامتا ، واستطاعت القرارات أن ترحل جميع الفصائل إلى تونس .

بدأ ممارسة الأعمال التجارية . ثم استطاع زيارة القدس والصلاة فيها بعد أن حصل على الجنسية الألمانية ، لتحقيق حلم دام طويلا مع أخويه الاثنين .

عاد من رحلته صامتا ، ككائن آخر قطع عن ذاكرته الحبل الذي يصل ماضيه بالحاضر المختلف الذي يعيش فيه حياة عادية. لا يبدي رأيا في مؤتمر أوسلو أو أي حديث يخص الصراع في السلطة الفلسطينية .

بلغ الستين بقلب مخرب ، أجريت له عملية لتغيير شراييه، وفي مقهى وسط المدينة ، بدأ تنفسه يثقل، وتصدر رئتاه أصوات حشرجة ، ثم ارتمى على الأرض بعد أن غالب الاختناق وأسلم روحه . أمام صديقه في الحي ذاته . وتصاعدت مع روحه الهائمة في المنزل كلمات المغني وديع:" أديش حلوي النسمات بضيعتنا ". انتهت ذكراه بمجرد أن دفن في

مقبرة المخيم وأصبح حجرا . كانت الفترة الجميلة التي يمكن أن يعترف بها شخصيا ،واعترف بها لأمه فقط ، والتي يمكن أن يعتبرها جديرة بالاحترام والاحتفاظ بها في الذاكرة ، هي فترة البعثة العسكرية التي أمضاها في موسكو يمارس الجنس الجنوني مع فتياتها الجميلات .

قررت ميس فجأة البحث عن أم فرح ، كانت تعرف أنها غائبة في الجامع الكبير ، وفي أحياء قريبة منه ، تلتقط من زوايا الحارات الضيقة نثارات ذكرياتها .

ارتدت عباءة سوداء ومضت تبحث بين المقرئين العميان ، وصحن الجامع ومزاراته عن أم فرح الهائمة، لم تفقد الأمل رغم التعب الشديد الذي أصابها دون أن تلمحها ، امرأة ترتاد المكان باستمرار أكدت لها أن المرأة التي تصفها ميس ، تروح وتجيء خلال النهار ، لكنها تنهي تنقلاتها في صحن الجامع في العشية .

انتظرت ميس ، لمحت امرأة تقترب متثاقلة ، تميل على قدمها اليسرى التي لم تعد تحتمل ثقل جسمها، اقتربت وحيت أم فرح التي نظرت إليها بعينين تغطيهما غشاوة الأيام، وبالكاد استطاعت تمييز الملامح التي تذكرها فيها.

امرأة تحمل عبء الحجر حولها ، تطير مع عصافير المسجد صباحا ، وتعود مع العصافير الهاجعة في الأشجار مساء . سألتها :

- هل عرفتني يا خالة ؟! أنا ميس . أجابت بتثاقل يائس :

- تغيرت يا ميس ، لكني ما زلت أستطيع تذكرك ، أنت ... أنت من رائحة محبوبتي الفقيدة ، تقطعت الكلمات التي تنطقها .

- لماذا لا تعودين معي ... صار عندي ولد جميل اسمه فرح ، أريدك أن تعيشي معي ، وأن تحمل يداك صغيري ... عودي معي أرجوك .

أجابت أم فرح وهي تشرد بنظراتها في شجرة تين كبيرة في زاوية الجامع :

- الحجر هناك أكثر صدقا ونقاء ، والناس أكثر بساطة ، جميعهم يحبونني ، حتى العصافير تغني لخالق السماوات ، وحين اقترب من مزار سيدنا زكريا اسمعه يدعو لي ، يدخل الطمأنينة إلى قلبي. وتتابع :

- أتريدين أن أعود إلى شقاء حي السيوف ؟! دعيني هنا، الحياة هنا أجمل وابسط مما تتصورين، الجحيم عندكم وليس هنا ، كل الحي لا يساوي جحر عصافير في جدار هذا الجامع ، الكل يتحدث عن

الكل ، والكل يراقب الكل ، أتظنين أن الحياة التي تعيشينها حقيقية ؟!

لا تصدقي ذلك ، تعالي وراقبي غروب الشمس وهي تمر في مسارها على حواف القلعة التي تتلون بالأشعة الصفراء البرتقالية ، تعبت يا ميس ، ولا أنوي أن أعود للعذاب ، أحب أن أصحو مع أنفاس الصباح هنا ، أغسل وجهي بماء الحوض في منتصف صحن المسجد ، وأرش الحبوب للعصافير قبل أن ننطلق سوية إلى طرقات لا نخطط لها مسبقا ، تنحني ميس وتقبل يد أم فرح بحب غير قادرة على السيطرة على دموعها التي تقاطرت على يدها .

- قبلي عني ولدك الصغير فرح ، واعتني به ، ستجدين يوما أنه كل شيء منحتك إياه الدنيا ، حاولي ألا تفقديه . حاولي أن تسلميه المفاتيح التي يحتاجها ، ليقوى على متابعة الحياة ، علميه وجود الأقفال قبل أن تعلميه وجود المفاتيح يا ابنتي .

ودعت ميس أم فرح وهي تغالب البكاء ، بدأ ظل جسمها ينكسر مع بقايا أشعة الشمس الغاربة إلى قطع تشبه قطع الزجاج المكسور . وظلت تتلفت وراءها وهي تتابع سيرها إلى باب الهزيمة ، الذي دخله وخرج منه ألف محارب، محت ذكراهم فسيفساء التاريخ المدون.

***

تكاثرت نثارات الأحجار والشظايا في البلد الجار، قنابل موقوتة تفجر أحياء وتقتل رجالا ونساء وأطفالا ،لا يعرف أحد من وضعها ، وبين الأيدي المقطوعة والرؤوس المتناثرة ، تخرج رحمة ، تعبر المسافة من الموصل إلى مدن أخرى ، تتجول بين الخرائب ، تبعث خلالها شكواها مع الدخان وأشجار النخيل المنكسرة ، رسائل إلى ميس التي غطت ذاكرتها كل الغيوم المعتمة في غرفة أعطت أسرارها للصمت . ثم تعود بعد تجوال طويل إلى مرقدها مساء ، تلم الأحجار بساطتها ، وتترامى الأعشاب البرية على جسدها الصغير ، تغطيه بأسرار الرحلات التي عبرت البلد في الأزمنة الغابرة، مارة بكل المدن التي فتحت ذراعيها لقوافل التوابل والأحصنة المدرعة ونبات الخشخاش المخدر ، وأحلام العابرين بالوصول إلى مضيف يحرك دفة القارب كي يقلب اتجاه الطريق إلى مسار مجهول .

شاعت أخبار في المدينة عن خروج دفعة من المعتقلين ، خرج البعض أمام دهشة آبائهم وعدم تصديقهم ، رياضيين ، صامتين ، هادئين ، مصلين، مناصرين للتسليم المطلق بالمقدرات المكتوبة بحبر

التاريخ المجهول ، غير مجادلين ، يأكلون بوداعة ، ولا يعلقون على الأحاديث من حولهم ، متأملين الجدران الظليلة الآمنة في الغرف ، حيث افتقدوا لونها لسنين ، ليست لديهم أدنى رغبة في الأشياء التي تنتمي للحياة العادية ، موسيقى ، ضحك ، خروج من المنزل ، حب، أحلام، آراء في طعم الأكل الذي يتناولون ، فقط رغبات في الحد دون الأدنى من حياة الأطفال المعوقين ، بلا تعليق حتى على الذباب الذي يزعج أنوفهم .

عندما سمع أبو فراس بخروج ابنه ، حافظ على هدوءه ، أخفى توترا داخليا أمام زوجته وأولاده ، حلق ذقنه بهدوء ، ولبس ثيابه ، ثم غادر منزله إلى مكتب صديقه المقرب عمران ، كي يتأكد من صحة الخبر ، ولم يصدق أذنيه عندما أكد له الأخير صدق ما سمع .

وجد ابنه يمشي بطيئا ، مستكشفا زوايا الحارة وحجارتها وناسها ، ووجده مذهولا أمام مشهد الأطفال الذين يلعبون قرب قنطرة أبي عبدو ، بائع الشرابات الملونة مع الثلج المبشور .

دخل يوسف ابنه ، غريبا بتصرفاته على الجميع حتى أمه التي تعرفه خلية خلية . مد سجادة صلاة وأخذ يصلي تحت أنظار أهله المشدوهين .

***

وقفت نجلاء أمام الباصات التي تنقل المعتقلين المفرج عنهم في محطة البولمانات ، تابعت بنظراتها كل الوجوه الموجودة على الأرصفة ، والشبان الذين يطلون من نوافذ الباصات ، والآخرين الصاعدين لأخذ أماكنهم فيها ، للعودة إلى الأمكنة التي لم يتبق منها في ذاكرتهم غير ذكريات قديمة عن لحظات أصبحت في نفوس الذين غابوا عنهم مجرد مشاهد عابرة منسية .

لم تستطع أن تشاهد يوسف ، الذي صعد حافلة أخرى ، لم تكن تدري أنه شاهد عينيها المتلهفتين لرؤيته ، كي تستعيد قليلا من الذكرى التي عاشت فيها خمس عشرة سنة ، وكي تؤكد لنفسها التي ظلت تشكك بإمكانية استعادة تلك اللحظات ، أن كل شيء يمكن أن يعود إلى ما كان عليه .

تجاهل يوسف وهو يصعد، الأيام التي قضاها ونجلاء في حضنه تحت الأشجار ، يتحدثان عن مستقبل يعيش فيه الأطفال في أمان ، دون تمييز أو فوارق ، تحرس أحلامهم المبادئ التي يحملها الشباب الذين بنوا قلاعا كبيرة ، يقرأ لها شعر نيرودا، ويغنيان لصباحات تشرق على الناس بدنيا جديدة، تغسل الطين الذي لطخ وجوههم ، وتبسط

الأحلام التي عاشوا عليها بين أيديهم ، غربت الشمس وحل الليل ، عادت نجلاء أكثر إيمانا بأن ما عاشته وعاشه الأصدقاء والفتيات اللواتي رافقنها تلك الأيام، لم يكن سوى حلم مخدوع . كان كذلك وبقي في نفوس الجميع حلما فقط .وحدهم الخارجون من السجون ، يعرفون ما الذي حصل لهذا الحلم ، وما هي الحقيقة التي خدع الجميع بها .

لم تفقد الأمل في مقابلة يوسف ، عندما يصل إلى منزل أهله ، في الأيام القادمة ، أو أي يوم ممكن، جلست في غرفتها تقلب صور الرحلات القديمة ، وهي تنظر إلى يوسف وهو يلفها بيديه مبتسما ، ممتلئا بكبرياء الأفكار العنيدة التي كان يحلم بها ويؤمن بها بما لا يدع مجالا للشك بأنه ثائر حقيقي بديهي .

- " لا يمكنني أن أنسى ماتيلدا يوما ما ، ولا اقدر على ذلك ."

قال لها يوما ما وهي تستلقي على السرير بجانبه ، في لحظة التحام لا يمكن لأي فتاة أو شاب أن يتوقع أنها ستتحول إلى ذكريات غير مرغوبة ، نجلاء في قلب يوسف كما هي ماتيلدا في قلب نيرودا . لكنها تتحاشى أن تقتنع الآن أن لا نجلاء في قلب يوسف وأن نيرودا صار تاريخا منسيا في الكتب .

عندما مر يوسف بجانبها وألقى تحية خجلة ورسمية ، قرب الرصيف المحاذي لقنطرة أبي عبدو بائع الثلج المحلى ، أدركت أنها كانت تغالط صوتا كان يخاطبها في روحها محاولا إقناعها أن ما مضى لم يكن سوى مراهقات فكرية عابرة ، وأحلاما ممتعة لا تتحقق .

مضت إلى غرفتها وأفرغت دموعها فوق السرير ، ثم نهضت ومزقت الصور والرسائل ، مزقت ثيابها وجلست في غرفتها عارية ، لا تأبه لطلبات أمها بأن ترتدي ثيابها خشية أن يشاهدها أبوها أو أحد أخوتها ، ولم ترد بكلمة على رجاء أمها أن تخبرها بما حصل لها .

ينتشر قوس يمتد بين القنطرة التي يجلس فيها الأطفال في شمس الظهيرة لتناول المشروبات الرخيصة المثلجة ، إلى المساحة الترابية التي تتحلق حولها بضعة بيوت قديمة، تستند إلى جدار أحدها شجرة توت ، بيت العمة وأبو حمدو الذي ظل بيته مضاء بأضواء تبرق ألوانا تنتقل من مكان إلى آخر ضمن ساحة الدار الصغيرة وسطحها . ما دفع العانسات الثلاث ، جارات العمة اللواتي يعملن بضم الخرز إلى الاقتناع بأن البيت مسكون بالأرواح . حيث تنهض العمة في الفجر تحضر إبريق الماء للعجوز كي يتوضأ ، وتمضي هي لسقاية الورود

ونشر بعض الثياب على حبال الغسيل الممدودة على السطح . حركة في الداخل تشبه الاستعداد للخروج باكرا في نزهة ، على متن القوس الملون حيث ينتهي المطاف بأكثر الأماكن راحة بالنسبة لهما ، القبرين الوديعين اللذين يقفان على هامش الدنيا ، بحياد لا يشبه سوى الزوايا المخذولة في أيام نجلاء .

" انتظرنا يوسف ، من صيف إلى صيف ، قرب القنطرة ، وتحت المطر ، ولم يأت ، نادته أمهاتنا ، وقطعان ماعز بائعي الحليب صباحا ، ولم يأت ، وزعنا الخبز على الفقراء في المقابر ولم ... وحين أتى، لم يكن يوسف الذي انتظرناه طويلا ... كان ظلا لا نعرفه ولا يعرفنا ، حتى القنطرة التي كان يلعب تحتها في الصيف ، لم يعرفها، من هذا الذي انتظرناه طويلا ؟!...".

يصرخ الأولاد قرب قوس القنطرة الفرنسية تحت المستشفى العسكري ، بما يشبه أغنيات فوضوية .

***

حمل الناس أم فرح إلى مثوى ابنتها بعد أن علم أبناء حي السيوف بوفاتها داخل الجامع ، سارعت للالتحاق بفرح ، مخلفة وراءها أعدادا كبيرة من

العصافير التي تنتظر حفنات الخبز صباحا وهي ترميها على أرض الجامع وفي زوايا الشوارع الضيقة، لكنها تبعثرت حين لم تجد جدوى من طيرانها أو ردا على غياب ام فرح ، ويديها الممتلئتين بالخبز المبلل والنجوم الصغيرة.

عادت ميس وهي مثقلة بالإحباط الذي يسببه الشعور بأن هرما آخر من أهرامات الذكريات التي كانت متكأ لروحها انهار ، صارت تحس بحجم قدرة الغياب على هدم الجدران العالية التي بنتها في روحها ، والقدرة المدمرة لإحساسها بأنها أصبحت وحيدة بين أموات .

حتى الشتاء الذي حل موعده لم يعد يأتي كما كان يأتي في الماضي ، حين كانت تتمشى مع فرح تحت ثلج كانون ، النهار يتقلب بين صيف حار وبداية رياح الشتاء ، حيث تنتشر سحب غير مرئية من قوس إشعاعات بلا لون تمتد كخيمة من البلد المجاور المدمر ، بلد رحمة ، الذي رجم بما يناهز آلاف الأطنان من القنابل الذكية واليورانيوم المنضب الذي رفع حرارة الجو ، وأخر دخول الشتاء وخروجه أيضا ، واحدث خللا في أمزجة الناس ومزاج المناخ في المدينة.

سحابة سوداء تغطي المكان ، تتبعها رياح باردة ، ثم شمس حارقة ، ومزاج يعلو ويهبط غامضا كآثار الخريف على أرواح البشر .

المرأة التي أشارت من على الرصيف إلى إيبولا صارخة :

- " هذا هو صاحب الرواية ." واختفت ، ظهرت مرة أخرى ليلا ، ترش بقايا المساكب والأحواض الترابية الخالية من النبات ببذور الأقحوان ، كي تقاوم السماء التأثيرات الخفية القادمة من جهات مجهولة ، وكي يقوى الشارع حامل الذكريات الطويلة ، على النهوض من موت يعلن عن نفسه خلسة من عتبة بيت إلى أخرى .

لم يبد لميس أن ثمة ربيعاً ممكناً في مدن البلد ، رغم الحركة التي توحي بنشاط متفائل بين مكان وآخر ، بدأت تتحرر من المقولات الكبرى التي قرأتها وآمنت بها في الأيام التي كانت فيها أشد التحاما بإيبولا . نبشت ميس من سراديب وحدتها دفاتر الأيام الماضية .

كانت في المرحلة الجميلة السابقة ، التي شهدت فيها المدينة انفتاحا اجتماعيا مميزا في أوساط الجيل الشاب ، صديقة مقربة من نجلاء التي ما زالت تجلس عارية على سريرها ، وسط احتجاج أمها

ووالدها وعجز الجميع عن إقناعها بارتداء ثياب تسترها .

دخلت منزل نجلاء وأهلها الذين رحبوا بها وشعروا أن ثمة احتمالا لإخراج نجلاء من عزلتها بحضورها ، دخلت الغرفة وقبلت نجلاء التي كانت تقلب صفحات مجلة شهرية منوعة وهي تقضم كعكة صغيرة في يدها . أدهش ميس جلوس نجلاء عارية غير مبالية ، سمعت صوت أمها وهي تصرخ موبخة في غرفة الجلوس ، بينما الأب يحاول إسكاتها . سألتها عن يوسف ، ردت نجلاء بهز رأسها كمن يعبر عن خسارة حلم خدع به طويلا ، ومشاعر أسف على درجة الغباء الذي كان يلفها آنذاك .

- ما هي أخبار إيبولا ؟! هل تنتظرينه كالأخريات ؟...

قالت بنبرة تستبطن الاستهزاء واليأس .

- نعم ، لم لا ، لم أصب باليأس بعد ، إيبولا إنسان مختلف ، يجب أن تجدي ليوسف آلاف الأعذار نجلاء ، لم يكن سهلا أو بسيطا ما عانوه وما حدث لهم . أجابت ميس بنبرة واثقة ، تمكنت ميس بعد جلسات طويلة من إقناع نجلاء بارتداء ثيابها ، لكنها لم تستطع دفعها إلى العودة إلى حياتها الطبيعية السابقة .

تناثرت ورود الأقحوان على أطراف الشارع الرئيسي في حي السيوف ، كأنها إعلان تمرد على الأرواح الميتة والجمود والتقلب الغامض في المناخ الذي أصاب المدينة والناس .

بدأت تتسلق الجدار المنخفض لتنتشر على شرفة سارة وعارف ، تميل كأزهار عباد الشمس صوب القوس المتكسر الذي يؤطر الجدار الخلفي للشرفة المنسية ، في الفترة التي بدأ فيها فرح برمي المارة بالحصى كأنه يحتج على ملل وانتظار طويل ، بعد أن يعود من مدرسته التحضيرية.

- " أمي أول من تنبأ أننا سنموت في زوايا البيوت." وكنت أضحك على لغتها السطحية الساذجة، واثقا من نفسي ومن الكم الكبير من الكتب التي يخاطبني فيها غرامشي ولوكاش وروزا لوكسبورغ ألا أتخلى عن قناعاتي بمقولاتهم التاريخية العملاقة . إلا أنني الآن أذكرها كثيرا وأنا في زنزانتي ، رحمها الله ، كم كانت ذكية ورائية ، وكم كنت مغفلا . يقول ماهر آخر المساء لإيبولا وغسان ، وحسن ، بينما يغط الآخرون في نوم قلق ، يتقلبون على أشواك الأحلام المعذبة التي لا تبارحهم نهارا أو ليلا .

- أجزاء من ذاكرتي بدأت تتخرب ، لا أستطيع التوجه، يهمس حسن ، ويبتسم الرجال الساهرون.

- أريد أن أعود إلى بيتنا . يقول غسان ، اشتقت لحديقة منزلي ، وفنجان القهوة الصباحي بعد ري الأشجار والورود . يبتسم الساهرون بمرارة ويلملم الجميع أنفسهم تحت أغطيتهم المغبرة الصوفية، ويختار كل منهم طريقه في ساحة أحلامه التي لا أفق لها .

***

خطر الجوع ألم بالمهجرين والنازحين عن بلد الخراب ، والثأر وتصفية الحسابات . منهم قادم محملا بمئات آلاف الدولارات من مصادر غير معروفة ، ومنهم من ينتظر حوالة مالية تصله أو لا تصله من البلد .

- تعال معي ... هيا ، إنها جميلة بملامح وحشية، تدفع مبلغا بسيطا مقابل ما تريد ، ناعمة ومتوحشة من بلاد الرافدين ...

يصرخ أحد الرجال داعيا صديقه إلى صيد جميل في أحد الشوارع . لم لا ترد علي ... مسكينة تكافح كي تدفع أجر الشقة التي تقيم فيها وتأكل هي وأهلها ... تعال ، حلوة وممتعة وقنوعة .

إذا لم تعجبك ، آخذك إلى العاصمة ، ثمة الكثير منهن... جميلات ومتنوعات ، حسب ذوقك ، ينشرن المتعة في كل مكان ، سخيات ومرضيات .

تعال .. لا يرد فراس الشاب الذي خرج لتوه من حوار طويل مع أصدقائه الذين عارضوا تبنيه لأفكار تدعو إلى أن الخراب في الداخل أخطر بكثير من الخراب المتجه إلى البلد من الخارج.

وأن صانعي هذا الخراب لا بد أن يدفعوا يوما الثمن غاليا، لأن التاريخ لا يغفل أحدا . فراس الذي كان يوما صديقا لإيبولا ، وغسان ويوسف وسعيد ، أيام طويلة من الحوارات والسهر وشرب العرق ، والدراسة والحب ، والخلافات الحزبية ، والنشاطات الدائرة، فراس الذي غادر بعد إنهاء الدراسة فجأة إلى قطر ، ولم يعد إلا بعد سبع سنوات ، انفصل خلالها عن زوجته بعد أن أدرك عدم صلاحيته لإدارة المؤسسة الزوجية ، أو عدم اقتناعه بها ، وباللحظات التي لا تحصى فيها ، حيث تثقل كاهله بالالتزامات التي لم يقو على تحملها والتفاعل معها ، بعد سنوات من الإحساس بأنه في سجن حقيقي يجب أن يتحرر منه ، استقل أول طائرة متجهة إلى سوريا وأعلن انفصاله الروحي عن زوجته التي اعتبرت أنه زوج لا يصلح لتحمل المسؤوليات والعيش كما يعيش الناس كلهم ، عاداته غريبة ،

ومزاجه نزق وصعب ، مختلف عن كل الرجال الذين تعرفهم يعيشون مع زوجاتهم بوداعة وسكينة . فراس اعتبر أن ما حققه حرية وإنجاز على الصعيد الشخصي والاجتماعي ، لإنقاذ روحه من الخراب . كما قال لأصدقائه .

بعد أن رحل للعمل في قطر وعاد ، التقى أباه لأول مرة في كتلة إسمنتية مستطيلة ، في المقبرة ، التقاه في جو ماطر بعد عودته ، تلوح عليه معالم الشعور بالسكينة والراحة ، في عالمه الجديد ، حيث يتخلص من نزقه وانفعالاته المجنونة وعذابه الذي لم تكن له حدود .

حيث أسلم روحه في اليوم التالي لعشية حديثه الطويل من النافذة مع الله في السماوات ، حين مد رأسه محتجا ، غاضبا ، وقرر أن الله سيأبى أن يحاسبه لأنه لا يستطيع الرد على الأسئلة المحيرة التي سيسأله إياها ، بعد رحلة عذابه الطويلة ، المليئة بالظلم والقهر . خرج فراس من تجربة الغربة ، واستعاد شريط ذكرياته قبلها وبعدها ، ضاع في ركام أسئلة لم يجد لها أجوبة كافية ، لزم الصمت والتأمل، بعد أن أدرك خدعة العبث الذي عاشه بين الأصدقاء ، وجمود الغربة ،وصدمة العودة إلى الوطن.

لازم منزله ، بين الكتب وأشرطة الموسيقى ، وسرت إشاعة بين بعض الأصدقاء أنه عاد مختلا وعاجزا جنسيا .

شرع يدون ملاحظاته في شعر يحكي عن فراغ لا تلملم أطرافه حدود مرئية .

سارة الصغيرة تشكل ثنائيا جميلا مع فرح الذي يكبرها بسنة واحدة . أصبح الطفلان يملآن حياة الأمين ، حتى صارتا تعيشان بشكل مشترك تقريبا . يروحان ويجيئان في حي السيوف كأنهما عالم كامل ليس بحاجة إلى بشر آخرين . على هذا النحو كانت تفكر حياة وميس كلاهما .

عالم آخر من طفلين صغيرين يلغيان الصمت المطبق والحزن والغبار الذي غمر الحي ، وحبل الماضي المليء بالأحداث الغريبة والمفاجآت ، صورا محفوظة في ذاكرة الأحياء فقط ، دون أن يعيشوا على بقاياها أو تكون حاضرة في أرواحهم . هكذا كان الأمر بالنسبة للأمين السعيدتين بطفليهما ، لكن الحي يبقى ذاكرة صعبة النسيان أو الإلغاء ، يبقى بشكله الراهن ، يحتفظ بماضيه، كقلعة لا يمكن أن تمحى ، أو كأحداث حفرت آثارها على الحجر والأوراق والسماء الممتدة كرقعة مرصوفة باللحظات المليئة بالاحتمالات التي فاجأت الأحياء يوما ما .

وظلت مرصعة بالتفاصيل المخبوءة والنجوم الموزعة كحلم هندسي .

***

انتشرت السحب داكنة بعد عصر اليوم الذي زارت فيه نجلاء ميس في منزلها لأول مرة ، وبدا الحي كئيبا قاتما . أثار ذلك فرحة نساء الحي لأن المطر سيغسل الغبار الذي ملأ السماء والحي ، تبادلت حياة ونجلاء حديثا قصيرا ثم غادرت حياة مع طفلتها إلى بيتها .

تأملت نجلاء الصور المعلقة على الحائط ، وقلبت أشرطة المسجل الكثيرة التي تمتد من حقبة سابقة ، حتى الأغنيات التي انتشرت حديثا .

عادت ذكريات مضت عليها سنوات إلى ذاكرة الاثنتين وهما جالستان تحت صوت المطر الغزير الذي بدأ يهطل في الخارج .

- هل تعتقدين أن الأيام الماضية يمكن أن تعود ؟ سألت نجلاء .

- لست أدري ، ستعود ولكن بطريقة أخرى لا أعرف كيف . ما زلنا نعيش في عالم لا يختلف كثيرا عما عشناه سابقا . لكن إرادة الاحتفاظ بالأشياء الجميلة ،واستيعاب حقيقة ما جرى يحررنا

من أوهام المرحلة السابقة ، يمكن أن نحلم كما نشاء ،ولكن ليس بأوهام أو نوستالجيا خادعة.

أجابت ميس . قطع التيار الكهربائي لفترة قصيرة بسبب البرق والمطر ، أشعلت ميس شموعا ووضعتها على الطاولات داخل الغرفة .

ذهبت إلى المطبخ لتحضر عشاء تتناولانه ، بعد أن قررت نجلاء أن تنام عندها تلك الليلة بسبب الجو الماطر .

عادت الكهرباء إلى المنزل فقررت كلاهما إطفاء الأنوار وإشعال الشموع ثانية ، كرغبة في الهروب من النور الباهر الذي يرمي بثقله على ذاكرتيهما ، بعد أن أصابهما إحساس عارم عبر الزمن بالقلق والنكوص، وكانت قدرة الضوء توحي بمواجهة الخديعة ،وتثير الدافع للهروب من الأفكار الرديئة التي تتطاير ، وتنشر مناخا معاكسا لرغبة الاختباء التي تتملك كلا من ميس ونجلاء ، إضافة إلى الإحساس بالهدوء والطمأنينة .

اندست نجلاء آخر الليل في السرير لتنام بجانب ميس التي لم تكن قد غفلت بعد ، انتابها شعور عارم بالمرارة والرغبة بالبكاء ، لاحظت ميس ذلك لكنها ظلت تحاول النوم ، انهمرت دموع صامتة من نجلاء ، حيث كانت تلمع تحت ضوء الشموع . فتحت ميس عينيها مستفسرة :

- لماذا تبكين ؟ ألن تحاولي الخروج من هذا النفق ؟ .... حاولي التغلب على المشاعر المؤلمة ، ما زالت أمامنا إمكانية الحصول على المفتاح ، مفتاح الغرفة المغلقة والأفق المطبق على أرواحنا ، بهذه الطريقة أنت تكرسين الألم فيك . مدت ميس يدها ومسحت دموع نجلاء وشعرها ، استدارت نجلاء من بين دموعها وقبلت ميس بهدوء بدأ يزداد حرارة حتى وصلت إلى شفتيها ، كانت القبلة أكثر اندفاعا وحرارة من قبلة مواساة ، أحست فيها الاثنتان تفاعلا يحرر القدرات الكامنة فيهما للحصول على عزاء في الكون ، وحبا يختلط بلا تعريف بصورة الحب القديمة ليوسف وإيبولا، مع انحراف لهندسة الرغبات باتجاه الشبق الصرف،والانجذاب المجهول للتحرر من الثقل النفسي .

ضاعت ميس ونجلاء في سراديب جسديهما حتى مطلع الصباح ، لم تدركا حدودا أو تعريفا لما يحصل بينهما . ثم غطت الاثنتان في نوم عميق .

-عاهرتان حقيقيتان نحن ، نخفي بتآمر خبيث حقيقتنا الكاذبة . ماذا جرى لأرواحنا ، حتى نستبدل ماء حياتنا النقي، بمستنقع يلوث دمنا وجسدينا ؟" تقول نظرات ميس في عيون نجلاء وهما خجلتان بعد أن صحتا في الظهيرة . ترتب كلاهما آثار سهرة الليلة الماضية بهدوء وخجل ،وتتبادلان الجمل

الصغيرة والكلمات باقتضاب ، لكن حالة التصالح والتبادل الودود للأسئلة التي تخص ترتيب الأشياء في مكانها تنم عن استيعابهما الدفين لما جرى .

ودعت نجلاء ميس ومضت ، بينما حاولت ميس ملاعبة ابنها فرح ، وطرح الأحاسيس المؤنبة باتجاه الفراغ . هبت نسمات رطبة تحمل معها رائحة الأرض الممزوجة بمياه المطر .

يتبادل الناس في المدينة المستلقية على البحر الأخبار. ثمة إيبولا آخر يقطن في أحد الأحياء ، يخبئ أسراره عن عيون المارة ، يختفي ويظهر بالطريقة نفسها التي كان يمارسها إيبولا حي السيوف . عرف فراس هذه الحقيقة حين ذهب بزيارة لأحد الأصدقاء كي يخفف الرتابة التي يعيشها في حلب .واستجابة لإلحاح صديقه الشاعر الذي يعيش حياة هادئة ، يكتب ويرسم في مدينته الساحلية التي ليست مدينة تجارية تضج بالناس ، حيث يعيش المرء هناك مللا كبيرا بسبب فقدان النشاطات الموجودة في العاصمة أو في مدينة كمدينته ، المساحة في المدينة الساحلية أكثر رحابة لممارسة حريات من نوع آخر ، مختلفة عن مدينة مغلقة محافظة كمدينة حلب .

يرسم بروايته المخفية أفقا جديدا لبحر يتناسل صواري ومنارات وصيادين ينتظرون صيدا وفيرا حتى العشاء ، ثم يعودون مثلما يعودون كل يوم ، بكثير من الحكايا عن القهر الذي تمارسه الأمواج الخضراء عليهم .

في حيه المسيحي الهادئ ، يخرج الناس لصلاة يوم الأحد، بينما يستغل هو ذهاب زوجته مع ولديه إلى الكنيسة لكتابة قصيدة أو متابعة رسم لوحة كما يكتب أسطره الشعرية التي يدقق في نحت مفرداتها.

إيبولا الآخر البحري ، شاهد ثان مع إيبولا المدينة المعلقة على الغبار يفتح لشمس المدينة أفقا باتجاه آخر ،كي يتفادى الهبوب المراوغ لنسمات بحرية تحمل رائحة الأسماك، يجمع أسطره خلف منارة ذات أضواء خافتة ، تقف صامدة أمام مناورات البحر الأخضر ، شديد العتمة ليلا ، حيث يطبق ثقل الرواية على الأمواج المظلمة التي تتحد في الأفق مع سماء أشد سوادا ، بعد أن تختفي النوارس وتطير في الجهات الغربية .

إيبولا البحري يعشق النساء ، ويذوب برائحة عرقهن الصيفي ، لأجسادهن طعم مختلف يختزن رطوبة تنضح بحرية يشتعل لها الجسد ، باندفاع جميل نحو المدى الذي يتزوج الشمس والماء .

في سهراته التي اعتاد أن يجمع فيها أصدقاءه المقربين وصديقاته بعد أن يمارس فصولا جنسية مع صديقته المحببة قبل أن يأتوا جميعا في المساء ، كان يلقي فيها شعره ويشرب مع الأصدقاء العرق أو الجين ، تمكنت فتاة اندست مع المجموعة من سرقة روايته في لحظة كان الجميع فيها يرقصون على نغمات بحرية ، وخرجت مع الجميع دون أن يلاحظ ذلك ، وسلمتها إلى جهة مجهولة ، في تلك الليلة تقرر أن يبقى إيبولا المدينة المغلقة الشاهد الوحيد ، إلا أن إيبولا البحري أعاد صياغة الرواية مع قليل من الأسطر والمعلومات المفقودة ، وأغلق بابه في وجه الأصدقاء والصديقات ، لكنها بقيت رواية منقوصة، بدأ بعد ذلك ممارسات تشبه إلى حد بعيد ممارسة إيبولا – شادي الذي كان يشكل أسطورة غامضة لمن حوله.

لم يكن أحد قادرا على أن يتفادى الهيمنة الطاغية لأسطورتين ، إحداهما مخبأة في مكان غير معروف قريب من ميس ، والأخرى في زاوية خلف المنارة البحرية . لهذا لم يكن سهلا أن تغيب الرواية عن حياة الناس ، وعن تاريخ المكان الذي شهد ضياع الآخرين . وكان البحر أكثر حزنا حين استقبل إيبولا صديقته بوجه وجسد مليء بالكدمات والحروق والتشوهات التي انتشرت في جسمها .إذ تعرضت

لتهديد بالاغتصاب نفذوه أو كادوا ، أثناء استجوابها عن كاتب الرواية ، ولم تعترف ، ثم أطلق سراحها بعد اقتناعهم بأنها لم تكن سوى الشريكة الجسدية " العاهرة " لذلك الشاب في الطابق العلوي .

ذهبت بعدها سناء واغتسلت طويلا بماء البحر ، وتمددت مرهقة تحت الشمس ، استنشقت هواء البحر الذي يحمل معه رطوبة الجهات ، وشعرت أثناء استرخائها مع إيبولا الثاني بأحقاد تأكلها من الداخل ، لكن الرواية بقيت ، رغم كونها منقوصة، مخبأة خلف المنارة حيث لا يجاورها سوى الأسماك والشباك التي ترمى عشوائيا من صيادين عائدين في الليل ، حالمين بامرأة تفتح أبواب قلوبهم وتجردهم من ملح البحر الذي أكل أجسادهم .

***

شعرت ميس برائحة شواء لحم يصل إلى غرفتها في المنزل، تبعته صرخات عويل وألم تستنجد بالآخرين . الرائحة قريبة من بيت فاطمة ، توجهت ميس إلى باب شقتها، وحاولت دفع الباب الذي لم يكن مغلقا بشكل محكم . النيران تشتعل بفاطمة وهي تهرب منها خارجة من الحمام إلى ممر المنزل ، اندفعت ميس لتلقي عليها بطانية توقف اللهب، لكنها

لم تستطع ، بسبب حجم النار التي كانت تكبر وتأكل جسدها ، تراجعت . وحاولت رشها بالماء ، لم يجد ذلك ، ارتمت فاطمة على بلاط الدار مشوهة الجسد والوجه ، لم تستطع ميس تحمل المشهد فخرجت تستنجد بالجيران. وما تبقى لفاطمة من بقايا روح لفظتها في المشفى ، بعد محاولات يائسة من قبل الأطباء لإنقاذها . كان التقرير يشير إلى أن المتوفاة صبت على جسدها زيت الكاز وأشعلت نفسها . قال جمال ، الطالب في السنة الأخيرة في كلية الطب ، أنها ربما كانت تعاني من هجمة كآبة وضغط نفسي ناجم عن إصابتها بالوسواس القسري المترافق مع اليأس والشدة .

لم يأت أحد من أهل فاطمة للخروج في جنازتها ، لأنهم قاطعوها منذ زمن طويل ، إضافة إلى اعتراضهم الديني على انتحارها . مضت جنازتها يحملها أهل الحي فقط . وعاد الجميع ، بعضهم يفكر في الأسباب التي أدت إلى ما حصل لها ، أحدهم قال : لعلها تأزمت من حب طارئ مع أحد الزبائن ، وآخر كان يخمن : ربما تعرضت لجنس وحشي نال من كرامتها إلى درجة لم تحتملها .

سمع الناس مساء أصواتا تتدفق من اتجاهات تتوالد من بؤرة واحدة ، شرفة سارة وعارف ، الأصوات غامضة ، لكنها تخفت كثيرا ثم تعلو في

أحيان أخرى نائحة ، محتجة ، تسأل عن غياب صاحب الرواية ، وتداعي الحي كأوراق الشجر الخريفية .

مالت أقحوانه على سطح الشرفة لتأخذ مكان الشمس ، لكنها بدت بلون مختلف يميل إلى الأسود، وكأنها سقيت بماء ممزوج بالحبر والنفايات .

امرأت تعرف في الحي بجنونها وجولاتها الغريبة ، وحديثها الدائم مع نفسها ، تائهة في مستنقعات الحي ، والزوايا المعتمة التي يلقي فيها الناس بقايا الأطعمة ، ذكرت في هذياناتها غير المفهومة أن عارف سألها عن أبناء الحي فردا فردا ، وأنه سألها متى سيعود إيبولا ، وسألتها سارة عن فاطمة وفرح وحياة .

تابع الناس حياتهم اليومية دون أن يأخذوا كلامها على محمل الجد .

ميس كانت أكثر المصدقين لما سمعت ، أشعلت الجمل غير المترابطة للمرأة فيها ذكرى الأيام الماضية ، وإيبولا ، وفرح وفاطمة ، بكت وهي تفكر بقناعة قارة ، أن ما تعيشه هي والآخرون ، أقل من حياة .

دفعها الشعور بالمرارة والإرهاق النفسي لكتابة شيء ، وضعت بعض الأوراق البيض على طاولتها وكتبت :

بعدنا ... من سيرى النور الذي رأيناه يوما .
من سيحرك القمر عن موضعه ليتوِّجه ملكا على الدنيا .
بعدنا ... من سيدلل الورود ، ويؤمن بما يسمى حياة...
أقمار نادمة نحن ، يضعنا موت الذين نحبهم في ردهات الخراب .
كتبنا كثيرا ، لكن العتمة تمحو كل شيء ...
والسطور لا يمكن أن تحمل المعنى في سطوة الليل.
حيث حلم بعيد ، لا نحمله على محمل الجد، أن نستطيع القراءة تحت الضوء الباهر .

تراءى لها بلحظة أهلاسات إيبولا مستلقيا بساق واحدة على سريرهما،ينظر إليها نظرات لا معنى لها، لكن رغم ذلك ، كان ينبع من داخلها المتعب،وهم عتب مرير .

" ساق واحدة ، وعين واحدة تكفيان كي نتابع الطريق الشائك ، ونقرأ سطورا يأبى الآخرون أن يسطروها أو يخبرها للأطفال القادمين ، إرادة واحدة للكشف تكفي كي نقول على الملأ إن الإمبراطور عار . وتكفي كي نؤمن بأن المطر يتساقط ويغسل الغبار المترامي .

ساق واحدة ويد واحدة تكفيان كي نؤمن أن الحياة تحتاجنا نحن ولا تحتاج من ينتظرها أن تقدم شيئا دون مبادرة . تسمع إيبولا يقول .

فؤاد زوج حياة ، يطالبها أن تخفف زياراتها وعلاقتها مع ميس " لأن في ذلك خطرا علينا " . يقول. " زوجها معتقل وقد يحسبونك مرتبطة معها بنشاطات سياسية ". ترفض حياة أن تستجيب لما يقول ، وينتشر مناخ من التوتر في علاقتهما ، تحاول حياة نزولا عند رغبة زوجها أن تخفف زياراتها لميس قليلا، كي لا تدفعها للتساؤل أو تلفت انتباهها . لكن ميس تلاحظ الزيارات السريعة والمتباعدة التي تقوم بها حياة لمنزلها ، تتجاهل ميس ولا تسألها . إلا أن حياة تعتذر منها في جلسة مسائية وتخبرها بالخلاف الناشئ بينها وبين زوجها حول زيارتها لها ، وتشرح لها تخوفه .

- لا داعي للاعتذار ، أتفهم خوفه ، حاولي أن تجعلي علاقتكما متوازنة دون توتر، لست عاتبة عليك في شيء . لن ألومك أبدا .

ردت ميس . " له عذره لأنه مشاهد خارجي وحسب."

- نحن الذين نهندس أرواحنا وحياتنا ، وليس هو من يرسم خطواتنا بمسطرته ، وتخوفاته الجبانة .

ترد حياة :

- أرجوك ، لا توتري الأمور بينك وبينه . هذا يكفي ، تجيب ميس .

***

كانوا يخبئون تعب الأيام الآتية في دفاتر صمتهم، مأخوذين بالشطحات التي ترفعهم إلى درجات النقاء المشرق، حياة بسيطة تكفي لأن يقضي فيها الإنسان تسعين عاما دون شكوى ، ببساطة الأتقياء، يخبئون الشمس في جرارهم في الأقبية العتيقة لاحتياجات الشتاء ، ويستثمرون الثلج في الأعالي لإطفاء لهيب الصيف ، حين يخبئون قوالب الجليد في أكياس قنب بنية اللون كي لا تذوب. يكسرون طوق الدائرة حين تحاول الإطباق عليهم بعادات ومشاريع بسيطة ، يقرؤون سيرة بني هلال أو عنترة أو ألف ليلة وليلة، كتنفيس عن الشكوى والملل ، أو يحتفلون بمائدة صغيرة ، كاحتفال كوني بكرنفال النصر أو الرضا ، لهم طعم آخر لدى العصافير وطيور السنونو ، ولهم القدرة على الوساطة في تزاوج النجوم ، وتربع الأقمار على عروش السماء الكحلية .

عاشوا لحظات أكثر هدوءا وأقل حاجة إلى تطويع الطبيعة بأثمان باهظة ، أثمان مادية وروحية ، لا يحتاجون في ترحالهم وتنقلهم سوى إلى الحمير ، يقرؤون الآيات ويصلون في مساجد تعود إلى

العهود العثمانية أو إلى عهود أبعد بكثير ، قرؤوا كتبهم الصوفية عن اللحظات التي يتماهى فيها الكائن مع الله في ساحات المساجد ليلا ، كتبوا وحيدين ، وبكوا ماضي الأيام ومرارة الوحدة ، وحفروا بعضا من أرواحهم على أحجار القلعة وقنطرات الجامع الكبير ، وبقيت أنفاسهم تملأ السجاد في ساحات الصلاة أمام المحراب ، نمت أشجار الصفصاف والصنوبر والنارنج والكباد على رحمة أيديهم التي تهب الماء كما تهب الحب . كسروا صلابة الحجر وعملوا حمالين تحت الشمس كي يعودوا بعد أن ينتهوا من عملهم إلى ظل شجرة الليمون وسقوف بيوتهم ذات العوارض الخشبية الخضراء . كانوا ظلا للورود التي لا ظلال لها ، وأغنيات روحانية تحاكي غربة الأقمار في الصيف . وماء يترقرق في ساحة الدار، بعد أن تحرق الشمس الأرض الإسمنتية السوداء ، كي يجلسوا ويغيبوا في ردهات تجعل الروح أكثر نقاء وقدرة على أخذ الحياة ببساطة ، لم يكن يعنيهم كيف ستكون دورة النجوم والكواكب في الأيام القادمة،

لأنهم كانوا أبناء أنبياء لم يدونهم تاريخ ، صعدوا أدراج الحياة برشاقة لم نعد نمتلكها نحن ، ثم تركوا لنا الأمكنة التي علموا فيها الأولاد إمكانية

الانتصار على خدع الحياة ، وابتكار الروائح الجميلة من ورود ورقية ، ورحلوا .

كتبت ميس بعد عودتها من زيارة لقبر فرح وعمتها وزوجها . ألقت نظرة سائحة على باب الدار من الخارج ، حيث بدا لها المشهد كأنه ينتمي إلى عهود لا تخص روحها . ناهضا بين التجاويف التي تقتحم صدره كشاهد في وجه الشمس، يعلم الناظرين إليه كيف يمكن أن يصنع الصغار الحياة ، مزهوا بشجرة التوت المعمرة التي تتوسط مساحة صغيرة مقابله ، وفخورا بقدرته الداخلية على جذب أطراف العالم إلى حوافه ، واقفا كخوذة محارب صلب ، يحصي كم ولدا لعب تحت شجرته العتيقة وكم قطف الأولاد من ثمار التوت عبر السنين التي مضت .

اتجهت ميس إلى سوق المدينة ، تجولت في أسواقه الكثيرة ، ولمست بعض الأحجار القديمة ، شدتها رائحة التوابل في سوق العطارين ممزوجة مع رائحة الغار والبابونج وروائح أخرى جذابة لكنها لا تعرفها، وقفت تنظر إلى السماء التي تلوح من فتحة مربعة في سقف السوق ، أنعشتها البرودة اللطيفة التي تنتشر في المكان ، رأت سائحات تشترين المطرزات والسجادات الشرقية ، والعباءات النسائية المزركشة ، شعرت بالسوق يجمع عصورا مختلفة في مشهد واحد. استطاعت أن ترى عادات

عثمانية وعربات يجرها حمير ، ومتاجر خاصة لبيع مستلزمات حمامات السوق، وبضائع صينية الكترونية عصرية .

اشترت بعض السكاكر لابنها وابنة حياة ، وعادت إلى بيتها ، تنتشر من جسدها وثيابها رائحة التوابل والعطور وصابون الغار .

بدأ الجدار الخلفي لبيت عارف وسارة يتشقق وتظهر منه صدوع، كأن ضربات عمياء أصابته ، ثم انهار ليكشف من الجانب الخلفي عن محتوى الغرفتين المهجورتين اللتين لا تحويان سوى أثاث قديم وبسيط . وبدأت الأعشاب والنباتات الشوكية تزحف إلى داخل الغرف ، بينما تجول القطط والجرذان ليلا، حيث قرضت مع حشرات أخرى أطراف بعض الكتب ، وانتشر الغبار الأحمر على الطاولات والبسط وحواف الأبواب . كان أولاد الحي يستعدون بنظراتهم المستكشفة لتحويله إلى ملعب لهم ، حيث يتسلقون الجدار ويدخلون الغرف ليمارسوا لهوهم ، وهم يحلمون كالأطفال الذين سبقوهم ، بمكان خاص بهم يشكل بيتهم الطفولي الصغير .

تابعت ميس عملها في تنظيف البيوت وأدراج العمارات كي تستطيع سد نفقات حياتها مع ابنها فرح . لكن روحها ازدادت تصدعا ، وأرهقتها

التأويلات المتناثرة والتفكير بالاحتمالات القادمة لحياتها .

وجدت في الفترة الأخيرة عزاء لها في آخر الليل ، بدأت تشرب الجين أو النبيذ كل ليلة كي تستطيع الدخول في النوم . وأصبح الجين أو أي نوع آخر من المشروبات الروحية صديقها في المساء ، بعد يوم مرهق ، وروح مهدمة ، منكسرة .

***

لم تستطع العلاقات التي أقامها سعيد مع الفتيات الألمانيات تعويضه عن الحب الدفين في روحه ، حاول أن يكون طبيعيا ومتوازنا في علاقته بهن ، لكنه صرح لأصدقائه أنهن فتيات عمليات لا يدركن سوى ترتيب أمور حياتهن ومصروفهن وعملهن ، وأنهن يمارسن الجنس كفعل بيولوجي ضروري فقط .

لم يدرك سعيد أن الحب الذي يملأ عالمه ، كمرض مزمن طاغ ، لا يدع له مجالا لممارسة علاقات طبيعية مع الفتيات ، وانه كان يشكل حاجزا قويا أمام أي عاطفة تحاول شق طريقها إلى قلبه . تشكل لديه ، عبر الزمن ، إحساس غريب بتدمير الذات ، معاقبا بذلك نفسه عن فشله في دخول قلب

سمر ، أو رغبة منه بالتكفير عن ذنوبه الماضية والأفعال المستهترة التي أدت به إلى هذه الحال . كان يتصاعد في داخله إحساس كبير بالتمرد ورفض شكل الحياة الذي يعيش ويعيشه الآخرون أيضا ، أمضى أياما مليئة بالحس العبثي والفوضى والعزلة ، بعد أن أنهى اختصاصه ، شرب في أحد المطاعم إلى درجة لم يعد يرى فيه بعينيه ، وقاد سيارته باتجاه المجهول ، بسرعة مجنونة ، أدى ذلك إلى ارتطامه بجدار إسمنتي قرب معمل كبير . أجريت له عدة عمليات لوضع دعائم للكسور المضاعفة وعظام الحوض التي تفتتت وفقد عينه اليسرى ، فوضعت له عين تجميلية صناعية . حصل بعدها على تقاعد صحي مبكر ، لزم منزله يدخن الغليون ويقرأ أو يستمع إلى الموسيقى ساهما ، لا اتجاه محددا لمسار أفكاره المتطايرة ، ويأسه القاتل الذي دفعه إلى عدم مطلق .

خرج من بيته لأول مرة بعد مرور أشهر على وجوده فيه ، لا يغادره إلا لشراء حاجات ضئيلة ، أصبح شعره طويلا على نحو يثير الغرابة ، ونمت لحيته بحيث أصبح يوحي للناظر وكأنه رجل بدائي خارج من كهف . تسكع في حانات ميونيخ وفرانكفورت ،وتعاطى الخمر بطريقة جنونية انتحارية .

قرر في زحمة ضياعه الروحي والفوضى التي تغلغلت في ذاكرته وروحه ، أن يصلي ، مارس صلاة كما يصلي مجنون ، يقبل الأرض كأنه يقبل ذكرى أمه الراحلة أو أبيه ، وتناوبت وتيرة حياته بين صلوات نوستالجية في البيت وذهاب إلى الحانات الرخيصة في الليل لتعاطي الكحول ، مؤمن وملحد، مدمر وهادئ مهادن ، مستهزئ وجدي ، مستسلم حينا ومتمرد حينا آخر ، عبثي أو يميل إلى فوضى لا حدود لها .

لكنه حافظ على زراعة الورد الجوري والياسمين والدفلى التي كانت تحبها وتعتني بها أمه في زمن غابر . رغم الطقس البارد في ألمانيا ، وكانت رعايته لأحواض الزرع ، صلاة حقيقية للماضي الذي لا يستطيع الخروج منه .

انتشرت روائح عطرية ساحرة مجهولة المنشأ في حي السيوف ، اختلطت رائحة الزيزفون برائحة الريحان والياسمين . أثار ذلك استغراب الرجال والنساء . كانت ميس تخرج مساء مع ابنها لاستنشاق الروائح التي تهب من كل الجهات ، أثارت الروائح مشاعر الاستغراب والدهشة بحيث فقد الناس القدرة على الاستمتاع بها . ظل الشارع يعج بها لأشهر ، ولم تجد ميس أو حياة أو أي كائن آخر سرها أو مصدرها ، تلا ذلك هبوب عاصفة

غبار أحمر ، أطبق على الصدور ودخل المنازل من تحت عتبات الأبواب ، بحيث لم تنفع محاولات النساء ترطيب قطع القماش القطنية بالماء وسد الفتحات الموجودة بها ، لم يعد ثمة صباح أو مساء في حي السيوف ، الجو أشبه بساعة غروب الشمس .

حين انتهت عاصفة الغبار ، انتشرت في المدينة ، في صباح مفاجئ ، رائحة تشبه رائحة الدم ، طفت على الهواء والنبات والحجر ، صار الناس يتحاشون شرب الماء لأنهم كانوا يشعرون أثناء شربهم له مع الرائحة التي تستوطن أنوفهم كأنهم يشربون دما . وامتدت الرائحة كقوس جبار حتى وصلت القنطرة الفرنسية قريبا من حي التراب حيث تسكن نجلاء وأهلها . أتت رائحة الزهور ومضت ، وهبت عاصفة التراب وانتهت ، لكن هبوب رائحة الدم الزنخة، لم تختفي عن هواء البيوت والشوارع والأحياء .

استوطنت الرائحة الحجارة والماء والنباتات ، حتى شعر الناس أن معداتهم امتلأت بالدم .

- " وحده إيبولا يعرف كيف يحصل شيء كهذا." قالت ميس مخاطبة حياة التي تضع قطعة قطنية معطرة على أنفها.

- أسرار كهذه لا يدرك مفاتيحها إلا أصحاب المرارات ومدونو الروايات التي لا نعرف كيف ندخل عالمها ، سامحه الله ، علمني كل شيء ، لكنه لم يسلمني مفاتيح معرفة الرواية . قالت ميس.

إيبولا لم يترك ميس في حيرتها ، أصر على إجابتها في حلمها .

حين غادرت حياة ، أطفأت الأنوار وتمددت على السرير حتى غفت .

خرج إيبولا من بين القضبان يلبس ملاءة بيضاء ، وتردد صوته بعيدا كمن يتكلم من بئر أو كهف.

" هذه الرائحة هي رائحة من مضوا سرا ، مكتومين، رائحة الأجداد الأتقياء ، والحزانى الذين أنهوا العمر بلا معنى ، حياتهم أقرب إلى الفراغ وأجدر بأسماء الموت الكثيرة . رائحة الأشجار التي ذبلت تحت الضربات العاتية ، ورائحة الحجر الذي هدمته الأيدي وضربات الغرباء، هي أقرب إلى رغبة كل هؤلاء في اختيار شكل لائق لتعذيب الآخرين .

لكنه أخف الأشكال ، كي لا ينسوا رائحة دمهم المسفوح تحت الأشجار وداخل البيوت ، وفي الشوارع المعتمة، في الليالي التي ضاعت فيها أرواحهم بينما يمارس الآخرون تشويه شكل الحياة الأجدر ، كي تستطيع أن تجد لها تعريفا مقنعا في

الكون وأمام الأحياء . لا تحزني حين يمارس هؤلاء المغيبون طريقتهم الخاصة في الانتقام ."

صحت ميس يتصبب العرق من كامل جسدها ، أشعلت الأضواء وبدأت تدون ما تستطيع تذكره من الكلمات التي قالها إيبولا في منام أقوى وأكثر وضوحا من أقوال الأحياء الذين تحسهم ميس بالرؤية واللمس وكل الحواس الأخرى .

***

لا يعود للقبلة معنى حين تمتزج الأنفاس برائحة الدم المنتشرة في الهواء والشرفات ، وبين بتلات الورود والتراب . العانسات الثلاث اللواتي يعشن قرب منزل عمة فرح وعجوزها ، بدأن يتقيأن فوق أسرتهن وأرض الدار ، لكنهن استطعن نسيان هذا الكابوس الثقيل حين رأين الأضواء مشتعلة في الليل في منزل العمة . حسناء التي أثار فضولها الضوء المنبعث من صحن الدار ، خرجت واقتربت من الباب، نظرت من ثقب المفتاح إلى الداخل ، فرأت العمة تغسل أرض الدار وتسقي الأصص الخالية من الزرع والورود .

عادت إلى أختيها ونشرت الخبر يملؤها الفزع ، الأخوات الثلاث أقرب إلى الانشغال بحدث كهذا،

بعد أن أمضين عمرهن في كتابة التعويذات لجذب عريس أو تحسين الحال. كن يعشن على وحي الخرافة ، لا يهدئ روعهن سوى الحديث عن المرأة التي تزوجت جنيا تحت الأرض ، والأخرى التي تكشف الأسرار لأنها تخاوي الجن .

وعلى هذا الحدث ، عشن شهرا كاملا يتحدثن عنه مع الجارات ويراقبن في الليل المنزل الذي انطفأ فيه الضوء وغطاه الصمت .

في إحدى الليالي سهرن على السطح ، رأين فجأة امرأة شابة على سطح الدار تنشر الغسيل ،وإلى جانبها يقف رجل شاب يرتب الأخشاب القديمة الموضوعة على السطح ، وينظفه من الأوساخ بعد منتصف الليل ، حيث من عادتهن ألا ينمن باكرا ، يسهرن على تبادل الحكايا والأحاديث عن خيانة زوج الجارة في المنزل المجاور ،وخلافاتهما حينا ،وعن أساطير جنيات ينمن مع زوج الجارة العمياء التي تسمعه يمارس جنسا جماعيا معهن فوق سريرها .

دخلت فوضى الأفكار إلى ميس التي اعتادت زيارة البيت القديم في فترات متباعدة ، حين أسرعت حسناء وأخبرتها بينما كانت واقفة تنظر إلى واجهة الدار ، بعد زيارة لقبر فرح الذي يقع في المنطقة المجاورة ، وراء الشارع الصغير الذي

يحاذي خلفية البيوت التي تتربع على تلة تشكل قوسا من دائرة .

فكرت أن العانسات الثلاث المؤمنات بالخرافات، تتراءى لهن صور غريبة بحكم وحدتهن وتقدمهن في العمر ، لكنها عادت بعد ذلك تجذبها أفكار أقرب إلى تصديق ما سمعت ، بعد أن أخبرتها حسناء أن الرجل كان ينادي المرأة على السطح باسم سارة . الأخوات الثلاث لا يعرفن عارف وسارة ،" كيف استطاعت حسناء معرفة الاسم ؟! " تساءلت ميس تغمرها الدهشة والاستغراب .

أحضرت ميس كاميرتها الديجيتال وأخذت صورا من زوايا متعددة للدار في اليوم التالي . وراحت تستعيدها في منزلها ليلا . أرادت أن تردف ذاكرتها البشرية عن الدار بذاكرة أخرى الكترونية ، ربما تحفظ تلك الدار من الإمحاء .

دونت تاريخ الصور ، وكتبت بعض الأسطر عن الغرابات التي تحيط بالعانسات الثلاث اللواتي لا يشعرن بالسكينة والراحة إلا حين تحيط بهن حكايا الجن وخفايا الكهوف الصغيرة المنتشرة في البيوت المجاورة ، وأساطير المجهول .

وصلت لميس أخبار من صديقة قديمة أن نجلاء أصبحت معروفة بصورة غير معلنة في حي التراب ، بين أوساط النساء أن لها عشيقات فتيات، منهن

طالبة جامعية استأجرت في العمارة ، واستجرتها إليها ، حيث كانت شقة الفتاة الجامعية عروبة ، المكان الأنسب والأكثر حرية وأمانا لعلاقاتها . حدثت خلافات كبيرة بين عروبة وأهلها لأنها لم تعد تزورهم في البلدة ، وإذا فعلت تسارع إلى السفر إلى حلب كالمجنونة ، مهما طرأت ظروف أو مناسبات تدعو لبقائها ليوم أو اثنين في بيت أهلها .

يوسف الذي فتح دكان بقالة قريبا من عمارة منزل أهله، بعد أن عجز عن العمل في أي وظيفة حكومية لأنه حرم من حقوقه المدنية ، وصفها بالعاهرة حين سمع ما يقال عنها ، وهي بدورها وصفته بالجبان المدعي الذي يخاف من ظله ، وطلبت من المرأة التي أخبرتها أن تنقل إليه كلامها.

لم تبدي ميس أية ردة فعل لسماعها خبر صديقتها نجلاء، تابعت تناولها للطعام وهي تسمع الخبر.

" تساقطنا ورقة ورقة ، لكي يمشي الآخرون في شارع مغطى بالأوراق الصفر ، رومانسية مطلقة للعشاق الذي يمشون على الطريق ، بأقدام تلفها الرياح " . تقول ميس في نفسها .

***

ضربات امرأة متعبة تقرع باب ميس مساء وهي تستغيث وتطلب عونا ، تفتح ميس الباب ، تبدو امرأة في سن الخمسين مرهقة ترتدي معطفا متسخا، بعد أن تسألها ميس ماذا تحتاج ، يندفع من ورائها أربعة رجال يقتحمون البيت ، يدفعون ميس ويبدؤون تفتيش كل ركن صغير من أركانه .

بصوت حازم يسألها أحدهم مهددا :

- أين الرواية ؟! ... أنت وحدك التي تعرفين مكانها ، أخبرينا عنه ولن يصيبك شيء . تجمد ميس في مكانها من حجم الصدمة والمفاجأة ، ينبش الرجال الوسائد وعنابر الصوفا وفراش سريرها ، ويتجولون في المطبخ ، يصعدون السقيفة المعتمة ينبشون كل زاوية فيها ، حين لا يعثرون على شيء يأخذونها معهم ، بعد السماح لها بوضع فرح ابنها عند حياة .

تمكث في غرفة الاستجواب ليومين ثم تعود إلى منزلها بعد أن تصر على عدم معرفتها بمكان الرواية وحتى مكان زوجها .

بعد أن خرجت ، مرت على منزل حياة ، طلبت منها فرح بلهجة خجلة معتذرة ، وبدا عليها الإرهاق، لاحظت حياة أن وجهها يبدو كتمثال شمعي .

مشت مع ابنها حتى وصلت البيت ، وارتمت على الفراش منهكة ،بدأ فرح الذي أحس بأن شيئا أصاب أمه بالبكاء، نهضت بتثاقل وهدأته ، ثم دخلت الحمام لتغتسل من آثار الزنزانة الصغيرة التي جلست فيها ساعات طويلة .

- رواية ! أية رواية ! إذا كنا نحن لا نعرف عنها سوى اسمها ولا أعرف أنا ، زوجة صاحبها ، أين هو؟! اللعنة على هذه الأيام ، دوامة أساطير ندفع ثمنها دمنا .

تقول ميس وهي تجفف رأسها بمنشفة وتصب الجين في كأس كبير .

- " لماذا تركتني في هذه المحنة يا أبي ؟! الآن بدأت أفكر فيك ، اخترت الطريق الصعب ، وأورثتنا من جيناتك ميزاتك وطباعك نفسها ، كي نختار بدورنا الطريق نفسه ." تتابع بحس مقهور وهي تغالب بكاءها وتتناول جرعة كبيرة من الجين .

في الصباح ، تشق رائحة الدم التي تغمر الهواء مجموعات من النساء المحجبات بملاءات سوداء حتى يصلن إلى بيت العجوز صاحب الكرامات أبو حمدو، بعد أن استطاعت قدرة النساء العانسات الثلاث ، نشر أخبار المنزل المسكون بالملائكة ، والظلال الروحانية بين الأحياء المجاورة ، كل

واحدة منهن تقصد بيأسها الذي ورثته عن أجدادها، المكان الذي تقتنع في أعماقها بسره المخلص ، الذي يشفي المرضى، ويعيد الغائب إلى ذويه ،ويؤالف بين الزوج وزوجته، ويعيد المجانين إلى رشدهم .

كبرت شجرت التوت في الوهدة أسفل باب الدار ، وأصبحت ذات حجم أسطوري لا تصل إليه شجرة مماثلة في عالم النباتات . تشف أوراقها عن ألوان وأطياف تلمع من بين لونها الأخضر المهيمن .

تحول بيت الأخوات الثلاث إلى مكان تقصده النساء للسؤال عن أسرار الدار ، حيث أصبحن يتقاضين بضع ليرات كي يجبن على التساؤلات التي تريد مزيدا من المعلومات التي سمعنها ، وكن يضعن بعضا من هوامشهن الأسطورية كي يرضين النساء اللواتي يمنحنهن ما يتوفر لهن من مال للحصول على أخبار ترضي فضولهن ، وتؤكد لهن الإمكانية الخارقة لصاحب الدار على حل مشاكلهن المحيرة . ملائكة من السماء ترتدي الأبيض ، تحوم فوق السطح ورجال ونساء متوفون يأمون المكان ويمارسون فيه حياتهم الطبيعية ، اختفوا لأسباب مجهولة ، بعد أن كانوا أناسا صالحين أشبه بأولياء الله .

والنباتات والورود التي تعيش هناك دون سقاية أو رعاية . الأخبار التي شكلت جزءا من هوامش

الأسطورة الكبرى التي لفت قوس الأحياء المجاورة ، واستطاعت الأخوات الثلاث ، اللواتي لا يعرفن القراءة أو الكتابة ، أن ينسجن ظلا لرواية لا يقوى كثيرون على جذب مثل ذلك الحشد الهائل إلى تخومها ،

مقتنعا بكل الإيمان بالخلاص الذي يمنحه المكان للأزمات والمعاناة التي ظل يرزح تحتها لوقت طويل .

***

تغيرت معالم منزل سارة وعارف ، بيع إلى ساكن جديد أعاد إعماره بطريقة أخرى ، حافظ فيها فقط على شرفة مطلة على الشارع تشبه الشرفة القديمة. شعر الناس الذين ظلوا يقطنون الحي أن أول نقطة علام كانوا يألفونها وتشكل جزءا هاما لأبصارهم في نسيج المكان قد اختفت، كمن يفقد بوصلته .

- النباتات المعرشة والطيور التي اعتادت المكان،والفراشات المضيئة في الشرفة القديمة ، ظلت تحوم في فضاء البيت الجديد وفوق جدرانه لمدة طويلة ، حتى اختفت فجأة عن المنزل الغريب .

" سأقصد طريقا آخر كي أصل إلى قلب الدنيا التي رسمت حدود (الرواية – الظل) العودة إلى بلد ضائع مرهق بالغربة ،والعودة إلى حياة لم تعد ممكنة ، تملأ هواءها روائح غريبة ، تفوح برائحة الأسماك الزنخة والدم ، ويمشي فيها الناس ككائنات دربت على تجارب خاصة في المخابر، كي تمارس حياتها كمخلوقات مخدرة أو منومة مغناطيسيا ، بكل

السبل ستعيش ، ستبيع الدخان المهرب ، والقهوة المرة للسائقين ، وتسرق وتؤمن زبائن لبائعات الهوى، لا يهم ، لكي تعيش ، تأكل وتمارس الجنس ، تكذب وتخون وتسرق وتقتل ، كيفما اختلفت السبل ، ستعيش ، لكن خارج الدنيا ، يلزمنا وقت طويل كي نستطيع التنفس مع هؤلاء براحة ، لن يكون للطرقات والفصول المتعاقبة،وضوء الشمس وحبات المطر ، أي معنى لمعاقبين بالتجارب الشرطية الغامضة في مخابر المدينة، كي يستطيعوا فقط الاقتراب أو ملامسة ظل الرواية المتوحدة . تخلوا عن المعنى الحقيقي للدنيا، وباعوا فرحهم الآدمي بفرح يشبه أعراس البهجة في الحظائر ، باعوا أولادهم ، دون أن يلامسهم الحد الأدنى من الارتباك أو فقدان التوازن البشري ، مشوا في طرقات لا تقود إلى مكان ، ولوحوا بأيديهم سعداء للمدينة في متاهات خرابها " .

كتب إيبولا على قصاصة ورق خبأها مع قلم في شق أحدثه في وسادته بعيدا عن أنظار الحراس، قريبا من الثالثة صباحا ، حين أدرك الوهن والنعاس أكثر الحراس قدرة على السهر والمراقبة ، سليمان الذي أصبح جزءا من ذاكرته هو وزملاؤه في الزنزانة التي بدأت جدرانها تنز قيحا وضجرا ورطوبة عفنة .

كبرت سارة وفرح وسط التغيرات الكبيرة التي طرأت على حي السيوف ، لكنهما لم يكونا قادرين على إدراك التغير والفرق ، لكونهما عاشا مع الأشياء التي كانت تطرأ على حيهما منذ البداية، لكن ميس كانت تشعر بالاختناق والغربة، أمام الفارق الكبير الذي أخفى المعالم الجميلة القديمة للشارع الذي تصطف على طرفيه بيوت الناس الذين عاشت معهم سنوات طويلة ، لم يعد الياسمين البحري الذي كان يتدلى من حدائق البيوت المحاذية لرصيف الشارع ، يشاهد . استبدل بمحلات لبيع الخردوات، وتأمين صيد جنسي خبيث باتفاقات سرية لها إشاراتها الخاصة التي يدركها فقط أصحابها .

بدأت سارة وفرح يستكشفان المكان ، معزولين عن كل أثر له علاقة بذكرى أهل الحي وذكرى أميهما اللتين عاشتا في جو مختلف .

تلقت ميس في مكالمة هاتفية مع أبيها نبأ وفاة أمها بنوبة قلبية ، أخبرها فيها أنه لم يكن قادرا على دفنها في البلد بسبب تكاليف نقل الجثمان ، فدفنها في تونس . سمعت عبر الهاتف النبض الخافت لقلب أبيها والصوت المجرد من أي قدرة على متابعة الحياة بتوازن مقبول . أخبرها أنه سيبقى هناك وحيدا ، وطلب منها أن تنضم إليه إذا كانت ترغب في ذلك ، شعرت ميس بحاجة إلى عودة الأموات

والغائبين الذين تركوها وحيدة إلى حياتها كي تقوى على تحمل صدمة الخبر ، لكنها واجهت آلام خبر الموت بمفردها دون مؤازرة من أحد ، سوى حياة التي لازمتها لبعض الوقت . ثم تركتها تواجه الغياب الطاغي لفقدان التوازن والضياع النفسي الذي جعل الدنيا أمامها بلا معنى، أمام حجم الخسارات الهائلة التي أصابتها .

خفف قليلا من تعبها وجود ابنها فرح الذي حاولت الذهاب معه في بعض المشاوير كمحاولات يائسة لنسيان آلامها . قررت ميس أن العزاء الممكن ربما يكون في زيارة قبر فرح مع ابنها الصغير كي تحكي لها ما حل بها ، وتزور قبر العمة وزوجها العجوز ، علها تحصل على بعض الطمأنينة والسلوى.

توجهت إلى المقبرة وهي تساعد فرح على تسلق الجبل الصغير الترابي ، كانت تعرف القبرين من نقاط علام حولهما ، لكنها وجدت كل شيء في المنطقة التي تعرفها متغيرا ، ظلت أكثر من ساعتين تبحث في كل مكان حتى أصاب ابنها فرح الإعياء وبدأ يتذمر ، ولم تجدهما، لم تشاهد النقاط العلام حتى .

- أين أماكنهم ، لم أفقد ذاكرتي بعد ؟ مكانهم أرض ترابية خالية !!...

هذا هو المكان ، أنا متأكدة ، ما الذي يحصل؟! يا إلهي! تحدثت ميس إلى نفسها بذهول ، وحين حل المغرب وأصيبت بتعب شديد، بينما صار ابنها فرح يمشي متراقصا كالسكران من حجم الإرهاق ، توجهت عائدة إلى حي السيوف ، دون أن تملك القدرة على التفكير بشيء ، أو حتى الرد على أسئلة ابنها المتتالية .

الأخوات العانسات الثلاث ، أصبحن محور البيوت التي تلتف في الساحة الترابية ، مشكلة مربعا مفتوحا تتربع البيوت القديمة عليه ، أحجارا مغبرة واجهت الزمن أكثر من مئة سنة . الكل يلجأ إليهن للاستفسار أو إشباع رغبته الروحية بحكايات عن المعجزات والكرامات التي تحصل في دار العمة ، بقيت الأخوات الثلاث تلازمن سطح دارهن بعد منتصف الليل ، كمن يراقب حركة الكواكب والنجوم ، علهن يشاهدن شيئا إضافيا ، يحكينه للناس كي لا يملوا من القصص التي كررنها مرات عديدة ، ويضفن بذلك سحرا أكثر جذبا لهن كي يصبحن سيدات حكاية البيت المسكون بالملائكة، وبأرواح ربانية . أكدن لميس ، وهن جالسات في الظهيرة يقشرن الخضار ، أنهن شاهدن العمة والعجوز وفتاة اسمها سارة تنادي شابا اسمه عارف على سطح الدار والأضواء مشتعلة في الغرفة أسفل السطح

،وأن فتاة يافعة كانت تتنقل معهم تسقي الزرع ، وتنظف ، ثم يجلس الجميع بعد أن يمدوا البسط على أرض السطح ، ويتبادلون الأحاديث التي لا يسمعنها .

- " الحقيقة تذوي في حي السيوف ، وحقيقة أخرى تنهض قريبا من حي التراب في منزل العمة ، تدعمها الحكايا الغريبة والأساطير ، وقبران اثنان اختفيا من مكانهما ولا أستطيع معرفة موقعهما، ماذا أصدق ومن أصدق ؟!.." تقول ميس في نفسها، يغمرها إحساس عارم بفقدان التوجه في الزمان والمكان من حولها .

اندفعت الدموع من عيني ميس وهي تجلس إلى طاولتها ، أكثر قوة من أن تستطيع السيطرة على نفسها أمام أنظار ابنها فرح المستغرب الخائف .

- " الفوضى والرعب ،والبلاهة ، تلفهم ، سعداء بحياة تصالحوا معها بأعجوبة خفية . الخراف فيهم أصبحت أنصاف ذئاب ، يتحركون ككوكب هائم في فضاء الكون ، سعداء بالضجيج ، وسعداء بفرحهم الكاذب ، يرقصون على أنغام يعزفها الماعز الجبلي وثيران البراري ، شبقون ، قناصون ، مختلسون لسعادات الآخرين ، يبيعون أولادهم ، ويقامرون بآمالهم ، سعداء ، شركاؤهم الجنسيون أطفال من الفتيات والأولاد ، بائعو الهواء ، يحرقون حقول

الأيام ، ويرقصون حول مذابح الفوضى ، يشربون الماء الممزوج بالدود ،ويسكبون ماء الينابيع العذب في المراحيض والمبولات العامة . شرطيون مراقبون على أنفسهم والآخرين ، موعودون بزلازل تقلب أركان أرضهم ، لكنهم سعداء بلهاء ، متجاهلون ، راقصون أبدا ."

كتبت ميس وهي تخفف ألمها بكؤوس الجين حتى فقدت توازنها حين نهضت وارتمت على سريرها متعبة ، ضمت ابنها فرح إليها واستسلما لنوم عميق .

فكر إيبولا أن ما كتبه في زنزانته سرا ، يمكن أن يكون هوامش للرواية ، وكذلك فكرت ميس أن مجموع ما كتبته يمكن أن يشكل ظلا آخر للرواية التي لا تعرف عنها شيئا . لم تكن ثمة قناة اتصال تنقل ما يفكر الاثنان به ، متشابهان إلى حد بعيد ، قناة اتصال تعبر الجبال والبراري والوهاد لتصل بينهما .

***

بلغ خبر إخلاء سبيل حسن ، بعد الآلام المبرحة التي عاناها ، وعرض بعدها على طبيب السجن الذي أحاله إلى مشفى مختص ، بينت صوره

الشعاعية وفحوصاته أنه مصاب بسرطان منتشر في معدته وأمعائه .

من الأفضل ألا يموت في السجن ،لهذا منح فرصة أن يموت بين زوجته وولديه الاثنين .

وصل حسن برفقة رجلين يساعدانه في رحلة العودة إلى منزله ، دخل الغرفة وارتمى على زوجته وولده سامر، حين سأل عن ابنه أحمد ، كابدت زوجته مشقة كبيرة لإخفاء نوبة البكاء ، أخبرته بتردد أنه كان يعاني من نوبات كآبة حادة ثم وجدته في غرفته ملقى على الأرض بعد أن تناول جرعة كبيرة من مبيد حشرات . ارتمى حسن على الأريكة وهو يشعر بخدر في جسده ، لم يخبر زوجته بمرضه ، فضل قضاء الليلة الأولى بألم واحد على أن يضيف ألما آخر إلى زوجته وابنه ، لكنه غرق بين موجتي بكاء متلاطمتين. في حديث منفرد بينه وبين زوجته، آخر الليل قالت بتول:

- رحمه الله ، كان وقع انتحاره صاعقا علينا ، لكن طبيبه أكد لي أنه مريض مشخص بالكآبة، وأن احتمال انتحاره مسألة محتملة .وأضافت :

- أذكر أنني قرأت في السنوات الماضية تقريرا، لم أعره انتباها ، يقول فيه أحد الأطباء الدارسين أن ما يفوق الثمانين بالمائة من شبان العالم الثالث وخصوصا الشرق الأوسط يعانون من الاكتئاب ،

وهي إحصائية تقريبية أجراها على بعض العينات في مناطق مختلفة ، لكني لم أصدق حجم المبالغة في مقاله .

يبدو أنه كان محقا . كان واضحا عليه الضغط النفسي الشديد الذي يعانيه ، وحالة اليأس والصمت التي لم أستطع السيطرة عليها أو مساعدته على تجاوزها . رحمه الله ، رجوعك الآن خفف الآلام التي أعانيها بمفردي أنا وسامر ، لكن سامر أصغر من أن يدرك حجم الخسارة .

كابد حسن آلامه بصمت كي يخفي أي احتمال بأن تشعر بتول بمشكلة ما في صحته . تناول حبات مسكنة خلسة ، وتمدد في فراشه مرهقا ، وهي تحاول بحركات متقانية تأمين وسائل الراحة التي تخفف عنه تعبه .

***

" لو أدركت المرأة السارحة المجنونة ، التي خاطبت بإشارة من أصبعها إيبولا ، مشيرة للناس أنه هو صاحب الرواية ، كأنها تكشف عن لغز ، أني الآن أحمل ظلا للرواية ، يشبه إلى حد بعيد ما هو مكتوب فيها من أسرار أراد الناس معرفتها ، حتى صارت شغلهم الشاغل ، وصار حاملها إيبولا

الرجل الغائب الحاضر ، والأسطورة التي تستمد غرابتها من ظل الرواية ، لتراكضوا إلي وطلبوا مني كشفها لهم بعد انتظار طال ، الآن بدأت أفهم بعض ما تحويه رواية إيبولا ، الفيروس الغامض الذي يهرب منه الناس لأنه فتاك ، لكن إيبولا حينا الذي يقلقهم لا يفتك إلا بالقتلة ، بروايته التي تظهر وتختفي كظلال دون ضوء، والآن صرت مع الزمن جزءا ممن كتبوا أسطرا من جوهر تلك الرواية ، أفتقد إيبولا وأحبه ، لكنني ، تحت تأثير المفاجآت العمياء صرت العنصر الهام الذي يكتب عن نسيج المدينة وغوامض الكون ، لا أختلف كثيرا عن صاحب اللغز الذي كتب أسطرها وطلب من إيبولا الاحتفاظ بها ، ونشرها في الوقت المناسب .

كتبت ظلا موازيا لها ، يحكي كما تحكي ، عندما كتبت عن اللحظات التي عشتها في زحمة الموت والقتل والحب والجنس والقبور التي تختفي وتظهر للناس ، وهي تعرف سر عذاباتهم ، ما كتبته كان جزءا هاما من تفاصيل حياتي الصغيرة التي يعيشها الناس كلهم ، وما كتبه إيبولا هو ظل أول هام للرواية التي يخبئها في مكان ما لا أعرفه ، لكنه يشكل مع ما كتبت أنا ، رواية بديلة، إذا ما استولى أحد على الرواية الأصل ، حيث يبقى لدينا ظل هام عنها كي نبلغه للناس ، التائهين ، ونشعل بها

الأضواء قرب قبر فرح والعجوز والعمة وسارة وعارف ، ونطفئ بها شعلة أبي عباس المتغطرسة المرائية ، نقيم بها مهرجانا صاخبا للضوء الذي يملأ الجميع بالفرحة ، ويدفن غزاة الكائن تحت التراب، ينشرها عرسا للناس الذين عاشوا أتقياء وماتوا منسيين تحت التراب ، لا وجود لأسمائهم ، إلا في أسطر الرواية فقط ".

كتبت ميس بفيض يشبه موج البحر بعد هدوء طويل .

كانت إحدى الأخوات الثلاث ، تعاني من الأوهام والأرق والخوف والكوابيس الليلية ، تمكنت بإلحاحها الشديد من دفع الأرواح الموجودة داخل بيت العمة والعجوز إلى فتح الباب أمام ضرباتها الملحة والصاخبة ، فتح الباب وسألها شخص يتوارى خلف الباب ذي المزلاج ، ماذا تريدين ؟

أجابت بإلحاح أرعن :

- أريد أن أتغلب على خوفي وأرقي .

مد يده البيضاء ومسح على رأسها بتلاوات سمعت همسها، ثم أدخل يده وأغلق الباب بهدوء .

تبدل بعد أيام ، سلوك ناهد الموتورة الفاقدة لتوازنها إلى امرأة هادئة ، تنام بوداعة متى تشاء ، وزال عنها الخوف والقلق اللذان لازماها أكثر من أربعين سنة .

الساعات القليلة التي كانت الأخوات الثلاث ينمنها ، تحولت إلى سهر دائم في عمق الليل باستثناء ناهد التي كانت تغالب نعاسها ، كي يرصدن الأعاجيب في المنزل المقابل ، بأرواحه النورانية ، والظلال التي تنشر في النفس بهجة لا يعرف الناس مصدرها .

***

نشرت نباتات الأصيصين المتوحدين على طرفي نافذة إيبولا أغصانها القصيرة ، والتفت صاعدة الجدار الذي يعلو النافذة ، ممتدة إلى سطح الغرفة وجدرانها الجانبية ، كنبات عملاق معرش ، حضنت الغرفة من كل جوانبها كشباك متداخلة خضراء ، حتى غطت الغرفة الصغيرة . بسرير شبكي تختلط فيه الورود الصغيرة بالأوراق الخضر، وعادت الفراشات المضيئة تنتشر حولها ليلا، بعد أن فقدت موطنها الأول .

أوراق خضراء كبيرة يخترقها قوس ضوء ملون ، يلتف ليصل الجدار الخلفي للمبنى الصغير الذي تعتليه الغرفة .

صعدت ميس الغرفة التي أصبحت كتلة محاطة بعريشة نبات أخفى معالم جدرانها ، وجدت صعوبة

في الدخول من الباب بسبب بعض النباتات والأغصان المتطاولة التي امتدت على مساحته ، بعد أن تذكرت أن جزءا كبيرا مما كتبته، بقي في الغرفة، لملمت الأوراق التي وضعتها في درج الطاولة وفي أماكن بين كتب المكتبة .

الغبار يعلو كل شيء فيها ، وثمة أعشاش للعصافير في بعض الجحور في جدران الغرفة ، مسحت بعض اللوحات المعلقة،حملتها مع أوراقها وخرجت .

الغرفة صارت بصمتها المطبق مرتعا للنمل والصراصير الزاحفة ، لكنها بيت الشاهد واللغز الذي ما زال يشكل في ذاكرة الناس الباقين سرا ليس له جواب . التراب منتشر بصورة مروعة ، لكن رائحة الريحان كانت أقوى من روائح عطرية أخرى تنتشر شباكها اللامرئية في فضاء الغرفة الذي سكنه اليخضور ، في منزلها وجدت ميس رسالة قديمة لرحمة كانت قد قرأتها على عجل بعد سفر الأخيرة إلى بلدها ، لكنها لم تمنح الرسالة مزيدا من الانتباه بسبب الظروف التي أحاطت بها تلك الأيام ، حيث كان ضغط العمل والتشتت النفسي الذي عانته بسبب غياب إيبولا المفاجئ ، والكتابات المتناثرة وموت فرح وهموم تربية طفلها ووحدتها ، كل هذه الأحداث التي ألمت بالحي ، منعتها من

قراءة متأنية لرسالة رحمة التي توفيت بحادث تفجير في الموصل ، فتحت الرسالة المغبرة ، مسحت عنها الغبار وقرأت من جديد :

- " كنت محقة عندما قلت لي إننا بلد عبور ، بلادنا رسمت طرقاتها للعبور منذ مئات السنين ، عبور القوافل المحملة بالموت ، وعبور البرابرة ، وقراصنة بر يحملون بوصلة وخرائط لرسم الحدود الأنسب لحركتهم ، لو ترين ماذا يحصل هنا ميس، سجن مروع يدعى أبو غريب ، وتصفية حسابات بين أطراف لا نعرف عنها شيئا ، رؤوس مرمية ، واغتصابات في زوايا الشوارع ، استبدلت أشجار النخيل بالمدرعات ، سيارات سوداء كتب عليها -إشارة (VIP) – شخصيات مهمة – تهرب آثار المتحف . إلى أمكنة مجهولة في الخارج ، هرب الشعراء والكتاب عبر الحدود المراقبة إلى الشتات . ولم يعد يكفي ماء العالم لإطفاء الحرائق في أرواحنا ، وفي الحقول التي تفوح برائحة البارود .أطراف مجهولة تتقاضى مبالغ طائلة من أطراف أخرى مجهولة ، لم يعد ثمة أفق في السماء، حتى العصافير صارت تضع بيوضها في أماكن نائية بعيدا عنا، أعادوا رسم أرواحنا، وأيامنا القادمة بفوضى المجهول، وضاعت أطراف الحكاية من

ذاكرتنا، أتساءل أحيانا هل كنا فعلا نشكل هذا الخطر عليهم ؟!

إذا أرادوا أخذ ما نملكه ، سنعطيهم إياه لكن دون دمار وخراب .حتى أرواح الأطفال المحروقين دمرت . أسأل نفسي أحيانا : كيف يمكن لنا أن نعود إلى حياتنا الماضية كما كنا بعد كل هذا ؟. هل بقي مكان للأحياء في هذا الجحيم ؟! نساؤنا تمارس الدعارة في الشتات .حتى ماء النهرين الكبيرين أصبح لرمي النفايات ولم يعد للشرب . من يمكن أن يرمي لنا طوق الإنقاذ من هذا الفصل المرعب ميس ؟.

أنا متعبة ، في كل مكان متعبة ، هذه هي آلامي، أردت أن أبوح ببعضها لك ، لأنك كنت الأقرب إلى روحي ، محبتي لك " .

***

آلام المعدة أجبرت ميس على تخفيف تناول الجين ، غلت بعض الأعشاب وشربت كأسا منها ، بدأت تتحول أحلامها إلى مهاترات تبدو فيها محتجة ومتوترة مع أشخاص لا تذكرهم عندما تصحو وهي تتصبب عرقا ، وفكرت في نفسها أن ذلك ربما يكون بسبب تخفيفها لجرعات الجين فجأة .

حين غفت ثانية ، خرج عليها في منامها زوج العمة العجوز، تحدث معها بصوت متقطع هادئ وواثق :

- " تذكري أننا ربما نعاقب بهذا كله على الأرواح التي مضت وصمتنا عنها ، لكن ليكن عزاؤك أن تتمكني من كسر طوق العزلة الذي أنت فيه . مازالت السماء كما هي، مليئة بالنجوم التي تمنحنا الرحمة ، ومازال ثمة متسع من الوقت كي نعيد الخضرة للأشجار الذابلة ، ونعيد المعنى للحروف التي فقدت معناها في أرواحنا المتعبة .

الدائرة طوق مكسور وعلينا أن نغلق دائرة الحياة كي تكتمل ، بهوائها ومائها وطيورها وأشجارها ، أن نصنع معنى لما فقد معناه من حولنا ، وان دام ذلك طويلا . تساؤلاتك وأعماق نفسك النقية هي التي تعطيك الإجابة يوما ما . اسألي سؤالا حقيقيا لقلب حقيقي ، يأتيك الجواب ".

استيقظت ميس أكثر راحة من صباحات الأيام الماضية ، حاولت تذكر ما قاله العجوز ودونت بعض الجمل ، ثم حضرت نفسها للذهاب إلى العمل .

- " إذا كانت الدنيا رفضت أن تمنحني ما أريد، وما حلمت به بعد أن أصبح شرطا ضروريا لتوازني وإقناعي بأن هذه الحياة جديرة أن تعاش ،

لا شيء يهم بعد هذا ! لأن كل الأشياء التي تجري حولي في الكون لا معنى لها ، مجرد خدع للبلهاء ، خداع لكم ، ولن تقدر على إقناعي بأنها حقيقية وجديرة، انتحاري اليومي يعني أنني أدركت الخدعة الكبرى، ليس جرما أو خطأ أن أحب سمر ، وأن أعيش حلمي ، لكن الأمور تجري بمسار أدرك تماما وببساطة شديدة طريقته ، والآلية التي يخدع الناس بها، بلهاء، نعم بلهاء أنتم ، صغار أكثر مما أتوقع ، هل تظن أننا نعيش في عالم جدير ؟!

إذا كان كذلك فأنت مخطئ. صادف أن إنغلق باب المرحاض عليك لخلل في القفل ، وكسرنا الباب كي نخرجك لئلا تبقى هناك أو تموت لأنك تعاني من احتشاء ربما تشتد وطأته في أية لحظة ، لكن تأكد أن ذلك لا يهم، لو فقط عرفت أننا في هذه الدنيا نعيش في مرحاض كبير .

يخاطب سعيد صديقه الذي سهر معه ليلة كاملة وتعرض لمشكلة في تواليت البيت ، حيث بقي فيه ساعتين بسبب عطل في قفل الباب ، عاد إلى البلد بعين واحدة وحوض مدعم بعشرة أسياخ من البلاتين بسبب الحادث المروع الذي أصابه عن قصد منه أو غير قصد ، إذ لا يخفى على أصدقائه المقربين طرقه في السلوك ، وقناعاته وتمرده الذين يندر أن يمارسه مع الحياة شخص آخر ، إذ من المرجح أكثر

أن يكون تعمد هذا الحادث في ألمانيا كشكل مقصود من أشكال الانتحار التي تؤدي إلى تشويه الذات ، لأن الذكاء والحسابات التي يملكها ، تؤكد انتحاره ليس بهدف إنهاء حياته ، ولكن بهدف إحداث تشويهات ينتقم فيها بشكل ما من الحياة التي يحتقر الاستمرار فيها .

ظل سعيد يرقص على أغنية فيروز " بيتي أنا بيتك"، يرقص ويقبل الأرض وهو مخمور ، لا يستطيع التخلص بأي شكل من ذكرى سمر ، رغم زواجه وابنته التي بلغت عشر سنوات ، وهي تنتقد تقصيره الأبوي ، وفشله في إقامة علاقة متوازنة مع أمها التي هجرها .

عاد سعيد من ألمانيا وكأنه لم يغادر البلد منذ كان طالبا في كلية الطب .

بعد أن تبنت فرنسا معالجة حسن من السرطان الذي أصيب به ، توفي في أحد مشافي باريس ، تاركا صورا قديمة لزوجته وابنه سامر ، إضافة إلى بعض الذكريات التي بقيت محفوظة في ذاكرة زوجته بتول ، لكنها كانت مؤلمة لها أكثر من كونها ذكريات تحفظ بعضا من رائحة الغائبين .

***

أنا الأعمى الذي عاش عصرين ، عصرا سبق الرواية ، وعصرا عاش مع الرواية ، لم أكن أرى ، لكني لمست بيدي حقيقة الأشياء التي عاشها الناس فيما مضى ، كنت أشعر أنهم يتذوقون طعم الحياة، وأسمع همس سعادتهم في استيقاظهم ، وأشم رائحة الشجر ، وأسمع صوت العصافير، وألمس التراب الدافئ الحقيقي ، لم أسمع أحدا يهمس خلفي واشيا بما أفكر ، ولم تسألني امرأة عابرة أن آخذها حيثما أشاء ، وسمعت ضربات أقدام الأطفال وهم يلعبون تحت الأشجار ، ويقصون أحلاما أصبحت الآن فردوسا مفقودا ، سمعت هسيس الرحمة بين الناس ، وشممت رائحة المودة والفرحة في الحكايات الليلية ، وكنت أحس تزاوج النجوم في المساء ، وصلاة العجوز تصعد الجهات التي تقود إلى جنات موعودة ، وسمعت أصوات الحركات الحرة في الشوارع ، لا يكذب علي السنونو حين يخبرني عن مواقع جحوره ، ولم تكذب علي المرأة التي تخون ، ولم تفقد الورود رائحتها الربيعية وتصبح في يدي ورودا ورقية لا أحس بلمسة المخمل في بتلاتها ، قطفت البرتقال والتوت البري وشممت رائحة النارنج، سمعت الحكايا الليلية بين الناس ، كانوا يضحكون

، ملء القلب يضحكون ، تحت سراج ليلي لكني الآن ، كأني أرى شيئا مغايرا ، أشم رائحة الدم والرائحة الترابية للورد ، وأسمع صوت الطعنات الغادرة في الجلسات الحميمة ، أتذوق الدنيا بطعم غريب ، وأسمع الأطفال يتقاذفون كلمات لها طعم الملح ، كأنهم لا يعيشون طفولة ، بل قراصنة يصطادون، أشم رائحة الرحيل الأخير ، رحيل راض ومقتنع بمساراته الصحيحة ، إلى أفق مجهول تحده أحلام الأتقياء ، رحيل نحو نداء الروح ، فوق الأرض".

يفضي العجوز الأعمى بكلماته وهو يمشي على الطريق الترابية تساعده عصاه التي أصبحت لسانا آخر ينطق به في حديثه مع الآخرين ، في الحي المجاور لبيت العمة ، بعد أن يخرج من منزله ، هاربا من العبارات المنتقدة التي ترشها زوجته عن تجواله الدائم في الطرقات كالمجانين،وإمساكه عن مبادلتها أي حديث يؤانس وحدتها في المنزل المنعزل الذي يقع أعلى الدرج القديم ، المفضي إلى كومة منازل قديمة .

استلقى إيبولا على أريكة الغرفة التي غطاها التراب ، منهكا لا يقوى على الحركة ، بعد سفر طويل، لم يتذكر إيبولا أنه كان يوما أبا ، ولم يتذكر ميس التي عاش معها الأيام التي يعيشها المرء مرة

واحدة قبل أن يخبو جسده ، نام يومين متواصلين، متعرقا ، متسخا ، بلا حلم أو هدف سوى الترتيبات التي أجراها مع غسان للخروج إلى عمان . تذكر الأولاد الذين يلعبون في شارع الحي ، لكنه لم يدرك أن ابنه فرح كان بينهم ، قريبا منه، قبل أن يصعد الدرج ويخلد للنوم منهكا ، لم يعد يذكر ، حين نهض فاقدا لوهلة ، إحساسه بالزمان والمكان ، المكان الذي خبأ فيه الرواية ، صب الماء على وجهه وغسل رأسه بالماء ، ثم لملم ثيابه التي ملأها الغبار، وقرضتها الصراصير في حقيبة قديمة ، وتوجه خارج الغرفة .

التفت حين خرج من باب العمارة إلى الشارع الذي شغل الناس فيه ، لم يتعرف على النقاط الأكثر رسوخا في ذاكرته بين البيوت المنتشرة على طرفيه . مضى دون أن يلتفت خلفه .

لأسباب دولية ، وتغيرات طرأت على الزمن والناس، حررت الأجساد ، وبقيت الذاكرة حبيسة الدهاليز المعتمة ، حيث نسيها أصحابها .

خرج جميع أصدقائه من الزنزانة ، لا يقصدون مكانا معينا ، حيث تشابهت عندهم الأمكنة ، داروا في الحدائق، والطرقات ، وداروا محيط القلعة، وشربوا الشاي المشتهى ، ودخلوا الحارات العتيقة،

لكنهم لم يتوجهوا إلى بيوتهم التي خرجوا منها أول مرة .

دخلوا حمامات السوق ، وجلسوا في الحدائق ، ومشوا في الليل تحت ظلال النجوم ، لكنهم نسوا آباءهم وأمهاتهم أو زوجاتهم وأبناءهم .

شغلهم الشاغل كان البحث عن معنى في الحياة خارج السجن ، حيث حلموا بالماء والبراري والصبايا، وجرار النبيذ، فاجأتهم الحياة بالخواء والرتابة ، وأرواح تمشي على الأرض بلا حلم يمكن أن يروه براقا واضحا على وجوه الناس .

دعايات الرقص والحفلات الساهرة لمطربين خرجوا من زوايا الحارات عاطلين عن العمل ، دهنوا شعرهم بالزيت والجل ، ولبسوا الأساور المطاطية الفوسفورية ، وسرحوا شعرهم إلى الأعلى SPIKY، كانت تملأ الشوارع بلوحات مضيئة تدعو الناس إلى حفل راقص عبثي حتى مطلع الصباح.

في هذه الأثناء كان إيبولا يخرج من حدود الوطن الضيق على رئتيه إلى عمان ومنها إلى بقاع أخرى في العالم ، برفقة سمسار تهريب البشر مقابل حفنة من الدولارات.

وفي اللحظة ذاتها كان سعيد يستعيد ذكريات الأيام الماضية بأغنيات تنتمي إلى الفترات السابقة ، حيث عاش السنوات الأولى من جامعته وحبه بأحلام لا

يسعها الكون ، ممارسا انتحارا بطيئا بشرب العرق والسجود أمام أغان تحمل نفحات ماض لا يعود .

كان يفتقد ، رائحة أمه ، وذكرى أخيه الكبير الراحل، وذكرى الأيام القليلة التي قضاها بصحبة سمر،كلها لم تعد سوى صور باهتة في ذاكرته المتعبة من عبء الزمن .

خرج الجميع من بين جدران الزنزانة واتجهوا إلى معابدهم الروحية التي تحمل ذكرى تخص كل واحد منهم ، صلوا في الجامع الكبير ، وتمرغوا على الجبل المنحدر للقلعة الناهضة في وجه الشمس ، وشربوا الشاي الثقيل في المقهى المطل على مشهد الأضواء المنبعثة من زوايا فتحات رماة السهام في أعلى القلعة ، ثم تفرقوا في اتجاهات مختلفة ، واحد إلى بيروت والآخر إلى دمشق والثالث إلى تركيا حيث سيعبر منها إلى اليونان ، وآخر إلى عمان .

عرف الجميع بخروجهم ، لكنهم لم يتركوا عنوانا للجهات التي يقصدونها .

فقط أودعوا الياسمين والشجيرات الصغيرة تحياتهم إلى من يحبون، ولم تصل التحيات إلا غيابا أكثر وطأة من غيابهم في ردهات السجن الذي طال. كانوا واثقين من وصولها ، لكنها لم تصل حتى مع نسائم الليل الناعمة ، تركوا الآخرين معذبين بالانتظار .

وحده العجوز في منزله المتوحد كان يعرف أنهم لن يرجعوا إلى بيوتهم وذويهم ، لأنهم خرجوا بلا ذاكرة ولا مشاعر تقودهم بوصلتها إلى من يحبون ، لهذا ظل جالسا أمام صخب الناس الذين ضجوا في انتظارهم ، هادئا – متأملا ، واثقا من الحقيقة التي كان يمتلكها دون غيره برؤيته المتأملة المدركة لثقل الأحداث المتوقعة لمفاجآت لا يعيها الآخرون .

الطفل الذي كان المرشح الأكبر لكي يصرخ أن الإمبراطور عار ، هاجر مع أبيه وأمه إلى البرازيل ليرقص في مهرجان " الريو " حيث تلمع الأجساد السمراء للنساء الخلاسيات وتتراقص الألوان كأقواس قزح متداخلة .

شعرت ميس بهالة لا تفسر من غيوم ورياح وغبار تملأ روحها بإحساس طاغ بالغياب ، غياب معالم الأرض ، وأجزاء متلاحقة من أحداث حميمة ملأت الذاكرة يوما ما ، تقاطع شريط ذاكرتها بصورة متضاربة مرت في ذهنها متقطعة ناقصة ، كأن ريحا مرت عليها ومسحت أجزاء عشوائية منها ، ارتمت على الطاولة وفتحت الأدراج كي تستعين بالأوراق التي كتبتها في الأيام الماضية ، علها تعيد ترتيب بعض الأحداث .قرأت بعض الأوراق فاستعادت الأخبار والمشاعر المكتوبة كمعلومات

وتدوينات ، ولم تستطع ربطها بالظروف التي دفعتها آنذاك لكتابتها .

أفكار ومشاعر وآراء وأخبار تشبه الأرقام المدونة في كمبيوتر ، تشكل مرجعا ممكنا لكنه غير مربوط بالنسبة للسياق الذي كتب فيه بأي حدث أو مناسبة شخصية ، لأنها لم تعد تتذكرها .

لملمت الأوراق وبعضا من أوراق إيبولا ، جمعتها كلها في مغلف أصفر ووضعتها تحت فراش السرير .

فاجأها الترهل والإرهاق الذي بدا على صدرها وعنقها، حين نظرت في المرآة بعينين متعبتين غائرتين، لمست التشققات التي ملأت كفيها ، ومسحت الأنوثة التي كانت تميز أظافرها وأصابع يدها . فكرت في تونس وأبيها ، لكنها رفضت فكرة أن ينضم متعب إلى متعب آخر ويمضيان في ردهات الأيام المجهولة هناك .

حياة التي أنجبت طفلا آخر تكنس عتبة بيتها وترمي بقايا صور الماضي في أكياس سوداء ، وهي تنظر إلى الشارع الذي غطته أشعة شمس واهية ، وبدا خاليا من الحياة ، تحده من أوله تلال ترابية صغيرة نمت على بعضها النباتات الشوكية ، ومن آخره تتربع غرفة إيبولا المحاطة بعريشة تقف كمتحف مهجور .

سمعت ميس بخروج إيبولا وأصدقائه ، بقيت أياما تنتظر، وتنتقل بين أهالي من خرجوا تستفسر عن وجودهم وعن زوجها ، لم تتم أسبوعا كاملا ، سافرت إلى دمشق لكنها اكتشفت أنها تسأل مجهولا عن مجهول آخر . أدركت أنها وصلت إلى نقطة العبور الأخيرة ، الغياب النهائي الذي سيجعل الدنيا من حولها غير محتملة ، صعدت غرفة إيبولا ، وبدأت تنبش الأغراض القديمة بين الركام والغبار . فكرت أن القبو المهجور أسفل الغرفة ، أمام درج العمارة ، يمكن أن يكون مكانا آمنا ، يتحاشى فيه إيبولا الزيارات المفاجئة للرجال الذين يبحثون عن خفاياه . كسرت القفل الصدئ بمطرقة صغيرة ، ونزلت القبو ، حاملة مصباحا يدويا . رأت صندوقا صغيرا في زاوية القبو ، سارعت إليه وفتحته ، أزاحت الكتب في أعلى الصندوق الذي تآكل من أطرافه ، وبدت الأوراق والدفاتر في

الأعلى ناقصة ، عبثت فيها جرذان القبو . أخرجت بقايا أوراق كثيرة مثقبة مقروضة في منتصفها وجوانبها بمساحات واسعة ، حاولت أن تتعرف على ما فيها في عتمة القبو ، تحت ضوء المصباح الصغير، رأت الرواية خرابا كاملا . لم تترك الجرذان فيها سوى قطعة صغيرة واحدة مقروءة ، العنوان فقط " ظل الرواية " ، أما

الأسطر الباقية على الصفحات الأخرى فقد محتها المياه المتقاطرة من أنابيب التمديدات الصحية ، وأكل الجرذان ما تبقى . بالكاد كانت تقرأ كلمات غير مكتملة ، تقرأ اسم سارة ، ثم تمحي الأسطر التي تليه ، واسم عارف الذي يقف بمفرده وحيدا على طول بقايا الصفحة المتآكلة ، وتقرأ اسم حلب مشوها .

قرأت اسم القلعة مرات عديدة في صفحات متفرقة لكنها لا تستطيع متابعة ما كتب بعدها . أخرجت ميس الرواية وصعدت إلى منزلها . أدركت عدم جدوى متابعة البحث عن صفحة مكتملة لم تمس ، وضعت الأوراق في حديقة دارها الخلفية الصغيرة .

توجهت ميس إلى الشارع الطويل المفضي إلى القلعة. كان ارتفاع عتبة القلق ، يقودها كما يقود الشمال المغناطيسي أسراب الحمام إليه ، فتتوجه تلقائيا إلى الأماكن التي تبث فيها الطمأنينة والراحة .

دارت حول رصيف القلعة التي بدت أشد ارتباطا بالأرض التي حملتها لوقت طويل ، وعلى أطراف جدرانها نافست الأضواء المسفوحة على تلالها العالية ضوء الشمس الغاربة الواهن .

خرج المعاقبون من القبو العميق الذي يسميه الناس حبس الدم ، صاعدين الدرج الهش المتعرج وانتشروا على الفتحات التي كانت في الأيام الغابرة

منافذ لرماة السهام . لكنهم كانوا ، بأجسادهم التي أكلتها العتمة والدود ، وقلق انفلات الوحوش الجائعة لتنهش أعضاءهم في القبو المعتم البارد ذي الروائح العفنة ، أكثر تسامحا من الزمن الذي طال عليهم في سجن دام مئات السنين ، حيث كانوا يرمون حبات الخبز المبلل للطيور الآتية من جحور الجامع الكبير ، ويرشون ماء الورد ليخففوا رائحة الدم المنتشرة التي كادت تقتل الناس من الإقياء والغثيان . رافقت السحب الخفيفة طيران أسراب الطيور التي كانت تروح وتجيء في الممر الفضائي بين سماء الجامع وقمة القلعة الشاهقة ، حيث ازدادت رغبة السائحين الصاعدين للدرج العالي بالتقاط صور للرجال المطلين من الفتحات الصغيرة كأنهم آتون من عصور الكهوف والعهود البدائية للبشر ، كي يقدموا لذويهم صورا نادرة عن رجال غريبي الأشكال والأطوار لكنهم أكثر حبا للعصافير من أي كائن على الأرض ، ويقتنصوا الفرص النادرة التي أتوا بحثا عنها في بلاد الشرق البعيدة . كالسحر بدأت الكاميرات تجمد لحظات للرجال الذين تصالحوا مع الحياة ، حين انطلقوا لفضاء القلعة الفسيح . ونسوا عصور الفزع والرعب الكبير .

مع أول إحساس لامسهم بالانطلاق الحر في رحابة العالم، في الوقت الذي بدأ فيها المقرئون

العميان بالتنافس على تلاوة القرآن والتعاويذ الغامضة لامرأة أتت للبحث عن خلاص من عذابات لازمتها سنوات طويلة ، غير قادرة على إيجاد حل لمعضلات الحيرة والعذاب والأشباح التي تلاحقها في شوارع الحي حتى تدخل بيتها ، وتدفن نفسها في سريرها، تكابد فصول الفزع والأرواح الغريبة التي تخاطبها حتى الصباح غير مبالية بأي داخل أو خارج إلى المنزل المسكون بالخراب والفوضى ، بعد أن سلم الآخرون أمرها إلى الجنون الذي لا حيلة أمامه .

رأت ميس حلا قريبا من مرمى أقدامها الحائرة ، تستطيع فيه أن تكسر طوق المرارة والخراب ، والضياع الذي خرب في ذاكرتها التوازن الرهيف لسلسة اللحظات التي تتكئ عليها في ساعات غياب التوازن والخلل المرعب ، واشتعال العالم من حولها بحريق ينوس بين صقيع مجمد ونيران تلتهم الامتدادات الخضر لأوراق الشجر والنباتات في حياة تهرب كالماء من بين أصابعها، لتنصب في مستنقعات ليلية تصيبها بالعمى . توجهت قبل أن تمارس خيارها الأخير إلى الأركان التي كانت ترتادها أم فرح وانتشلت من صندوق خشبي صغير في ساحة المسجد بقايا ألبسة أودعتها الأم كصدقة لعابر محتاج ، بعد أن تعرفت عليها بين ملاءات

وألبسة أخرى وضعها راحلون آخرون ، ثم توجهت إلى منزل الأخوات الثلاث ، الجارات القديمات للدار العتيقة التي تبحر ليلا مع الأشعة المتداخلة لنجوم ترتصف على عتبات السماء .

توجهت ميس لتنضم إلى صحبة الأخوات الثلاث ، بدافع داخلي للشعور بمزيد من الانعتاق من سطوة المكان الذي تعيش فيه في حي السيوف ، مثقلة بالفوضى والألم والتعب الذي شقق روحها ، حيث تجلس الأخوات معها مرحبات ، يقصصن عليها حكايات تبدو لها أكثر صدقا وقربا إلى قلبها من الحقائق الملموسة بالحس الفيزيائي العالي الذي حول وجودها إلى نثارات ، في نهاية الطريق إلى ضياع مفتوح.

***

على طرف المنارة ، في مكان آخر على البحر ، حيث أودع إيبولا الثاني ، شاهد الصواري والموانئ المحطمة ، نصا آخر ، أعاد كتابته بما استطاع تذكره . تبادلت الأسماك ابتلاع الحروف التي امتزجت بطحلب البحر الأخضر ، ولم يستطع حبرها مقاومة ملح مياهه الحارق . اختارت الأسماك المتراقصة الحروف التي تحلو لها ، كما

اختار في وقت مضى ، قراصنة عابرون ، السفن التي جذبت رقصاتها في عمق البحر جشع عيونهم ، واختارت الأجزاء التي استطاعت التقاطها من الرواية ، والسباحة فيها مع الأمواج الخضراء . بينما راحت المراكب الصغيرة تتهادى مسترشدة بضوء المنارة الخافت ، المنارة التي ظلت منذ عصور سحيقة ، البرج الضوئي الحيادي ، يرشد الأعداء والأصدقاء إلى موانئ المدن . يرشدهم بالضوء كي يرشقوا المدن بالنار والقنابل أو بالأعراس البحرية التي تحتفل بتزاوج الشمس مع الموج . المراكب التي يقودها بحارة منهكون ، عائدون إلى منازلهم، حيث تنتظرهم زوجات تحضرن لهم المياه الساخنة لغسل الملح الحارق الذي يغطي أجسادهم .

كان فرح يراقب الأخوات الثلاث بمزيج من دهشة الاستكشاف الجديد والإحساس بالغرابة . جلس إلى جوار ميس ملتصقا بها ، يسمع الحكايا التي جذبته الأسرار الغريبة فيها مثلما سربت فزعا خفيا في نفسه .

حين حل المساء ، اندفعت ميس إلى منزل العمة . طرقت الباب ، لكنها انتبهت أنه غير مغلق . دخلت ساحة دار العمة والعجوز ، لاحظت الترتيب والنظافة التي تعم المكان ، حيث انتشرت رائحة

الريحان والياسمين الذي كان يبدو عليه أنه سقي منذ فترة قريبة .

صعدت السطح فوجدت بعض الثياب المنشورة على حبال الغسيل . نزلت إلى قبو الدار ، شاهدت الفراش خالية ، لكنها مرتبة بعناية . وإلى جانبها تصطف كتب عنترة وسيرة بني هلال ، وأجزاء عديدة من قصص ألف ليلة وليلة، قديمة ، صفحاتها صفراء بعضها ممزق من أطرافه . لم يخل البيت من الأشياء التي يحتاجها ساكنه خلال اليوم ، ألواح الصابون جديدة ، الأطباق والملاعق والمناشف النظيفة للحمام، وإبريق الماء المملوء الموضوع على طاولة صغيرة قديمة مع كأس نظيف .

أشعلت ميس بقية الأضواء ، وغمرها إحساس عارم بالراحة والهدوء . مدت الفراش لصغيرها فرح وتحركت تستكشف بقية غرف البيت القديم .

شعرت ميس بين نائمة ومستيقظة بجانب طفلها ، أن المنزل مليء بأشخاص يمارسون حياتهم الطبيعية، يطبخون ويصنعون الشاي ، ويتحادثون بأصوات هادئة ، أحدهم يقرأ سيرة عنترة للعجوز ، وامرأة تسقي الزرع ، لم تقوى ميس على فتح عينيها ، لكنها حين غالبت الشعور الذي يمنعها ، فتحت عينيها لتعاين منزلا خاليا هادئا

يغط في سكينة لم تعهدها خارج الدار

***

- هل دفعكِ الحنين اليّ؟
- لا...نعم اليك انتَ.
- ما الذي تحبينه في سجان؟
- أحبه احيانا...أحبه دائماً...
- كم تكذبين.
- بل اقول الحقيقة،الآن احبك اكثر من أي رقت اخر.
- لهذا غامرتِ واتيتِ قي اليل.ماذا قلت للحراس؟
- قلت لهم أريد ان اراك...
- تبدين جميلة الليلة.
- وهل رأيتني...هل رأيتني فيما مضى؟
- رأيت من يشبهكِ كثيرا،لا فرق كبيرا.
- ثمة نجوم تلمع تحت حاجبيكِ،ورمشان يتقوسان ناهضين.أصابعك الجميلة ترتجف نحيلة بيضاء...ارى قضبانا في حدقة عينيك،لكن هذا لايهم،هما اجمل هكذا.جسدك نحيل لكن نهديك متقافزان متراقصان.
- لا تقترب مني هكذا،اكره المفاجأة.
- ستعتادين،اهدئي فقط، استطيع ان ارى رغبة في عينيك...رغبة ليس بي بل بهدف اخر لااعرفه.

- بل...بل بك انت...افكر فيكَ انت المفتاح-أقصدمفتاح قلبي.
- كذب هذا لكنه يشعل في حريقا.
- اغسل يديك واسنانك.
- لم؟هل سأحتاج اليهما؟ الذئاب فقط تحتاج الى انَياب واسنان للعض...
نعم العض.ولكن قوسي لا يحتاج الى ما تقولين كي يعزف على كمنجتكِ الراقصة.

- ابقَ هادئا...ليس هكذا...
ابقِ ها...
"تستطيعين الذهاب كالنهرحيثما ياخذكِ ميل الممرات،ان تتنزهي كما يحلو لكِ من الاسفل الى الاعلى وبالعكس.ربما تصادفين نافذة او مفتاحا لقلبكِ،اذهبي كما تشائين".

***

كتبت رسالة إلى أبيها في تونس في صباح اليوم التالي تقول:
أبي ، عدت إلى مهد الأشياء ، والبساطة التي اكتشفت أن أرواحنا تنشدها في الدنيا ، ولدي

الصغير يلعب الآن تحت شجرة توت عملاقة ، وأنا أمارس نشاطي الاعتيادي ، يغمرني إحساس كبير بأني محمية بملائكة غير مرئية من كل الجوانب ، حتى النباتات لا تذبل هنا ، والأموات يعودون لزيارة أماكنهم التي عاشوا فيها حياة بسيطة بعيدة عن الغدر والألم والكذب ، وصور الكائن البشعة ، المكان هنا كأنه مهد كبير لأطفال ترعاهم أيد غير مرئية، وتبارك أرواحهم ملائكة تصعد وتهبط كالحملان، لم أعد أريد الخارج ، لا أريد شيئا من الدنيا ، **أريد الخرافة والأسطورة ، ولا أقوى على النظر إلى الحقائق القاتلة ، في الأسطورة أستمد هدوئي ، وفي الخرافة تحرسني الملائكة في نومي . خدعنا زمن الحقائق الطويل ، وأنا الآن أركن إلى موطن الوداعة .**

هنا فقط أستطيع أن أقهر الإحساس القاتل بغياب أحبائي . أشعر دائما أنهم لم يغادروني ، يتحومون حولي رغم أني لا أراهم ، لكني مع ذلك أشعر بإحساس ضمني بالرضا والراحة ، أستطيع أن أقهر الحرمان والغياب الذي أصبح الأسطورة المرعبة في حياتنا بثقله المدمر للروح .

شعور أكثر راحة مما كنت أحسه حين كانوا مجتمعين حولي . أستطيع استعادة فرح الحبيبة متى

أشاء ، واستعادة إيبولا والعجوز والعمة وحتى أمي التي لم أرى قبرها في تونس.

أنا الآن أعيش داخل الأسطورة الكبرى ، أقتات على الخرافة التي تتسجها عقول بسيطة مغيبة عن عالم الكبار في الخارج ، وأشعر يوما بعد يوم أنها أكثر صدقا من كل الحقائق التي عشناها يوما .

لأننا حين نعاني خللا هائلا وألما وقلقا من وطأة الحقائق في عالمنا ، تكون الأسطورة الدافئة البسيطة ، الآمنة هي الحقيقة الكبرى التي تعيد إلينا توازننا وراحتنا كمخلوقات تسير في طرقات غادرة إلى المجهول . وتعيد حقيقة الأشجار ورائحة الورد وعذوبة المياه ونقاء الهواء والأحلام إلى جوهرها الذي افتقدناه طويلا .

قبل أن تنهي رسالتها تردد صوت إيبولا من جهات لم تستطيع تحديدها : يكرر جملة واحدة مرات عديدة ، بصوت منخفض مكسور : حلمت أنك ضيعتني ، حلمت أنك ضيعتني ... رغم أني لا أصدق بعد أن أدركت عمق الفهم الذي تستوعبين من خلاله ما حصل لنا ويحصل لأولاد البلد جميعا. في الأيام الماضية ، فكرت أن روح الإقدام والفرحة والرغبة العارمة في متابعة الحياة ، حتى لو كانت بالحد الأدنى ، كانت تصيب أصدقائي في الزنزانة . لأنك كنت في الأسفل ، ترجين الحراس أن يدخلوك

لكي تزوريني وتريني ، لكن المؤلم أنك كنت تمرين كظل في الممرات ولا أراك ، أشعر بك فقط، لأني كنت أحس بتحسن في مزاجي ، وتفاؤل داخلي بالكون والدنيا يصيبني.

لكني لم أدرك أن الحراس كانوا يساومونك على جسدك ، مقابل السماح لك بالمرور بجانب قضبان زنزانتي كشبح عابر ، كي ينتابنا أنا ورفقتي ذلك الكم الهادر من الأمل ، والرغبة في اقتحام المستحيل ، لأنك كنت تمرين كمعجزة لا ترى ، روحا محبة ، متعلقة بتراب الذكريات ، تسلم كل شيء ، لكنها لا تسلم ذاكرتنا وأفكارنا وروحنا المتعبة ، مخلصة للتفاصيل التي عشناها معا ، مخلصة للزمان والمكان الذي عاش فيهما أولئك المنهكون، أصدقائي .

أعلم أنك كنت ترسلين الأخبار العطرة لأمهاتهم ونسائهم على أنها رسائل منهم ، لتخففي وقع الصقيع.

لكن من أين لهم أن يعرفوا أنك تخاطبين أهلهم بأسمائهم، في الوقت الذي تبث فيه كل تلك القوة والأمل ، رسائل توقعها امرأة وحيدة ترصف كلماتها المحملة بالوعود التي يتوالد منها أمل غامض في حياة مفتوحة .

"صبية وحيدة هي أنت ".

لا أثق أنك لست أنت من كان يعبر أمامنا في المساء ، ينشر رائحة العطر والثقة القوية بأن زنزانتنا ستنتهي يوما ، ونخرج كما ولدنا في أيام مضت ، نرصد الحياة بأرواح تفتحت من جديد ، لتضع بصماتها وما يخصها وأحلامها وأسرارها ، على سطح الكون ، قبل أن تترك كل شيء للصامتين ، وتغادر .

أصدق أنك سلمت جسدك لهؤلاء الحراس ، مقابل أن تمنحيني مزيدا من التماسك والفرح لي وللأصدقاء الذين فقدوا أي شعور حقيقي بالحياة ، بعد عشر سنوات من العيش داخل غرفة صغيرة ، لا ترتادهم فيها سوى الأحلام البعيدة المستحيلة ، ولا يسمعون فيها سوى صوت الحراس . أسامحك وأدرك الهدف الذي تريدين الوصول إليه في تلك اللحظات. أن تزرعي في قلوبنا ياسمينا وموجا بحريا يهيئ لنا أعياد الموج الخضراء وريحانا .

حلمت أنك ضيعتني، استيقظت خائفاً ، هل تصدقين أني أضيع عنك ؟ مهما امتدت المسافات واليأس؟ لا أصدق، لكني حلمت أنك ضيعتني .

ختمت ميس رسالتها إلى أبيها بكلمتين سريعتين : محبتي أبي.

انتهت

حلب

1/5/2008